في انتظار الملائكة

في انتظار الملائكة

عبد الباسط بيوض

قصص

تصميم الغلاف : محمد عيد

تدقيق لغوي : محمد السمالوسي

رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٣١٣١

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٣٢٢-٤

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١٤٤٥٥٢٥٥٧ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob١@yahoo.com

دار اكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، ٢٠١٤م

في انتظار الملائكة

عبد الباسط بيوض

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهـــداء

إلى روح المفكر والفيلسوف العظيم الدكتور

مصطفى محمود

أهدِي هذا الكتاب

المؤلف

مقـدمة

هذه ذكريات و قصاصات و خواطر و قصة قصيرة .. مرت بي علي مدار أيام الشباب الأولي .. الأيام الدراسية و الاجتماعية الجديدة و ربما العاطفية و بالتأكيد الخيالية .. فيها البسمة و الحكمة والفكاهة و المغامرة و الخبرات و المطبات و المواقف الصعبة والمواقف السهلة !

تمنيت أن أستطيع أن أقدمها في أسلوب بسيط سريع الإيقاع وسهل المعني .. و أحسبني اجتهدت في ذلك ..

إن مهنتي .. المحاماة .. مهنة البحث وراء المعني القريب إلي المعني البعيد .. مهنة الاستماع و الإنصات لمشكلات و آلام الناس .. وكذبهم و خداعهم كذلك لإيهامك بأنهم مظلومون ليظفروا بتأييدك للدفاع عنهم .. و هذه العلاقات المتشابكة في النفوس البشرية و التي تقذفك فيها المحاماة .. تخلق فيك فلسفة خاصة تجاه معطيات الحياة المتعددة ..

من مداد هذه التجارب و الخبرات وكذلك الآراء التي كونتها – قدر استطاعتي – عن معاني الأشياء المتصلة والمنفصلة .. كانت هذه السطور ..

أسيوط ...البلد العتيق

لازلت أذكر ذلك اليوم ، أول يوم أخرج فيه من قريتى وتطأ قدماي أرض المدينة .. و كانت أسيوط ... حيث جامعتها التى قبلتنى طالباً فى إحدى كلياها العريقة .. كلية الحقوق .

و لأها أول مرة أخرج فيها من قريتى فقد آثرت أن يكون معى أحد ممن لهم خبرة بها وسبق لهم العيش فيها يساعدنى فى الحصول على مسكن ، وكان رجلاً أزهرياً تخرّج في إحدى كليات جامعة الأزهر وهو أيضاً من أقاربى .

لا أستطيع أن أصف فرحتى وسعادتى .. أن روحى المحبوسة والقابعة فى قرية بحضن الجبل التى تملؤها العصبية والجهل أن لها أن تتحرر وتنطلق ، وأى انطلاق .. أها الجامعة ، و أها دراسة القانون التى كانت تدعم ما كنت أحلم به دائماً ، أن فكرة حقوق الإنسان ومواجهة الظلم والإجحاف الذى يتعرض له البشر فى شتى بقاع الأرض جل ما كنت أقرأ كثيراً فيه وعنه .. بل وصل الحد أننى كنت أخرج من مدرج الكلية و أمشى وحيداً داخل الجامعة مستغرقاً فى التفكير فى هذا المشكلات الإنسانية !.. وكانت صورة المهاتما "غاندى" لا تغادر مخيلتى أبداً ، بل كنت أستشعر أننى المهاتما "غاندى" نفسه !!

وصلت أنا و رفيقى إلى أسيوط ، وتوجه بى إلى (إسرائيل) وإسرائيل هذا هو اسم أشهر سمسار لمساكن الطلبة فى أسيوط حينذاك.. ويعمل مكوجى . و هو طاعن فى السن .. تشعر وأنت تتحدث إليه أنك ستفقده فور انتهاء حديثك معه .. فلابد أن ملك الموت يقف بجواره منذ لحظات .. ولكنه ينتظر أن يدع المكواه الثقيلة الموجودة فى قبضة يده و قدمه !

وبعد تشاور طويل مع رفيقى عن الأماكن و المناطق التى يوجد بها مساكن للطلاب الوافدين والتى تشكل أحد أهم الموارد الاقتصادية لمدينة أسيوط لكثرة الطلاب المغتربين فى الجامعة ، انتهى النقاش والاتفاق على أحد المساكن فى منطقة الزهراء بجوار الجامعة مباشرة لا يفصلنى عنها سوى سكة القطار الحديدية ..

وذهبنا وقابلنا مالك العقار ، وكانت صدمتى الأولى .. أن الغرفة لا تبدو إطلاقاً مناسبة ، ولا هى التى كانت مرسومة فى مخيلتى عن ساكنى الحضر ، وانزعجت وأعترضت، ولكن رفيقى قال لى أنه بإمكانى تغيرها فى أى وقت أجد فيه أفضل منها ، وأنه شخصياً كان يفعل ذلك فى كل عام دراسى مرات عدة، وافقت على مضض ، وتم حجز غرفة كاملة لى وحدى، وكان ذلك من باب الترف من وجهة نظر رفيقى وعم إسرائيل السمسار ، فالغرفة يشترك فيها اثنان أو ثلاثة ، أما أنا فقد فضلت على أن أكون منفرداً .. و هذا الشعور بالاستقلالية مازال يراودنى حتى هذه اللحظات .. فما أفكر فيه لا يشعر به إلا أنا ، وما أحلم أن أحققه لا يهم أحداً سواى .. فلابد أن أكون منفرداً ..

ثم ذهبنا إلى العتبة الزرقاء لشراء العفش.. وعفش سكن الطلاب عبارة عن سرير حديد ومنضدة ومقعد .. وبعض الأوانى البسيطة التى لم أستخدمها إلا قليلاً ! ثم أحضر رفيقى عربة يجرها حصان !! وتم شحن العفش على العربة .. ونظر رفيقى لى و قال: اركب مع سائق العربة وهو يعرف الطريق جيداً وأنا سوف الحق بكما ..

وفى الحقيقة هذه الفكرة لم ترق لى إطلاقاً ، ودب فى نفسى الرعب، فأنا مازلت لا أعرف شيئاً فى المدينة الكبيرة و مازلت غريباً.. و ماذا أفعل أن ضللت الطريق إلى السكن ؟ و كان ذلك فى نهاية عام ١٩٩٥ أى أننى لو ضللته لا يوجد أى وسيلة تجعلنا نتقابل ثانية – حيث لا محمول في ذلك الوقت – فى المدينة التى بدت لى من أول وهلة أنها واسعة مترامية الأطراف ، لذلك بادرته قائلاً :" لا .. لن اذهب وحدى .. ربما هذا الرجل لا يعرف العنوان الصحيح و لا أنا أعرفه كذلك .."

فضحك رفيقى قائلاً : "يلزمك يوم واحد وستعرف كل شبر فى أسيوط".

وركبت على العربة مع سائقها ، أما رفيقى فمشى ورائنا وعلى مقربة منا ، وكان يرتدى زيه الأزهرى –الجبة والقفطان– مهرولاً ورائى.

لا أستطيع أن أصف هذا الشعور الذى انتابنى وأنا جالس فوق أغراضى على هذه العربة كأحد اللاجئين أو النازحين من بلد لآخر .. فأنا طالب الحقوق الذى سيدرس القانون بعد أيام قلائل، ويتصفح

عما قليل آراء فقهاء القانون .. و يقرأ لغاندى حتى تقمص شخصيته تماماً، وجزمت أننى حفيد غاندى فى النضال ضد العنصرية .. والدعوة للسلام .. ها هو ذا يركب عربة بدائية يجرها حصان ؟! أن هذا – في الحقيقة – سبب لى ضيقاً وحرجاً شديدين والناس تنظر لى .. وشعرت أن الناس ستضربنى بالقباقيب مثل شجرة الدر حينما يعلمون أن من يعتلى هذه العربة البدائية يحلم أن يكون يوماً ما مناضلاً !!

وفى الحقيقة أن أحداً لم يكن ينظر لى على الاطلاق ، فلا يبدو شيء غريب أن يستقل أحد عربة يجرها حصان محملة بأغراض .. ولكن كان هذا توهمى أنا وحدى فى هذا الوقت بالتأكيد ، ولكنها لا تعدو أن تكون حلماً من أحلام الشباب وهواجسه فى العالم الجديد ..

وصلنا وقمت بوضع السرير والمنضدة والمقعد فى غرفتى وأحكمت إغلاقها ورجعت إلى قريتى مرة ثانية للعودة بعد أيام مع بدأ الدراسة ، وقد أخبرنى رفيقى أن لنا أقرباء من العائلة فى أسيوط معظمهم فى مركز "أبوتيج" وصدفا وأنهم أصحاب نفوذ ويتقلدون مناصب مهمة ، فمنهم أعضاء مجلس شعب وضباط وقضاة كثيرون جداً .. وأننى اذا نلت معرفة أحد ضباط أمن الدولة منهم سيكون ذلك بمثابة حماية وحصانة لى من جهاز أمن الدولة الذى كان أشرس ما يكون فى أسيوط فى هذا الوقت تحديداً .. وأكثر وحشية مع الطلاب المغتربين .. لكننى رفضت رفضاً نهائياً لهذه الفكرة .. وأخبرت رفيقى أننى لن أتعرف على أياً من العائلة فى أسيوط على وجه الإطلاق مهما حدث ... وتعجب هو كثيراً منى ومن ضيقى لهذه الفكرة .. لكننى نفذتها حتى تخرجت من جامعة أسيوط .. وحتى الآن!

كانت الغرفة هى واحدة من أربع غرف ، الحجرة المجاورة لى هى حجرة غير مسكونة ويسميها رفقائي فى السكن (الحجرة السرية) !! .. و هم اطلقوا عليها هذا الاسم؛ لأن الطالب الذى يقوم بحجزها كل عام لا أحد يراه إلا خيالاً يشبه الطيف !!!! فهو لا يأتى إلا نادراً .. و إذا جاء لا أحد يعلم متى دخل السكن ومتى خرج !! فقد تمر عدة أشهر ولا تراه ، وإذا رأيته لا تستطيع أن تتمكن من مشاهدة ملامحه كاملة ولا تستطيع أن تتحدث معه اطلاقا!! ثم أنه يبدو عليه أنه متقدم فى السن عنا كثيراً .. و كثرت الروايات والتكهنات .. البعض قال: أن هذا الرجل هو د ."جيكل ومستر هايد" ! والبعض قال:أنه "جن" ! والبعض الآخر قال: "أنه يعمل فى جهة أمنية سرية ولا يريد أن يتعرف عليه أحد !!!"

أما الحجرتان الأخيرتان فكان يسكن فيهما خمسة طلاب من محافظة المنيا ..

ولم أر أناساً متشاكسين و لا يحبون بعضهم بعضا مثل أهل أسيوط وأهل المنيا .. هذا ما استنتجته .. وكان هؤلاء الطلاب تتملكهم الدهشة من شدة حبي لمدينة أسيوط ! ويقولون: أنها بلد غالية المعيشة وأهلها عصبيون جداً و غير ودودين .. ودائماً ما كان يحدث شجار بين طلاب محافظة المنيا وبين أهالى أسيوط !

وفى الحقيقة أن أهل أسيوط لم يكونوا بهذه العدوانية التى كان يظنها المنياوية .. أن أسيوط بلد تشعر أنها بلاد عتيقة ، أهلها ينحدرون من أصول عريقة ونسب معروف ، وهم فى قمة الاعتزاز بهذه العراقة وهذه الأنساب العربية .

كان بقية الطلاب ينظرون لى نظرة على أساس أننى مدلل وأعيش فى ترف! فكونى أعيش فى غرفة وحدى فهذا قمة الترف .. وكان ما يبهرهم أكثر هو جهاز الراديو الذى جلبته معى !! .. فقد كان هو المادة الإعلامية والترفيهية الو حيدة حينذاك !

كان واحد منهم يدعى "رضا" .. و رضا هذا شخصية مرحة .. من مركز العدوة .. كان يأتى كل ليلة لكى يستمتع بالهواء المنعش المنبعث من المروحة النقال الموجودة ضمن مقتنياتى فى حجرتى ، وكانت هذه المروحة فى وجهة نظرهم دليل كافٍ على أننى فعلاً مدلل.. وأن أهلى مبذرون وإخوان الشياطين !!

وكنت فى شدة الاستغراب من تفكيرهم هذا .. فما أنا فيه أقل بكثير جداً على ما هو عليه منزلى فى القرية !! بل أن أهلى كانوا مشفقين جداً على حياتى هذه فى الغربة .

وكان رضا يأتى دائماً إلى حجرتى التى كانت بالنسبة له مقهى .. فلا يكاد يجلس حتى أقوم بتجهيز الشاى والتحية بالسجائر – وهي الخطيئة الكبري التي تعلمتها في أيام الدراسة للأسف – التى يدمنها هو إيّما إدمان !!

وكان فى مقابل هذا الاستقبال والترحاب يعلم جيداً ما أحبه وأنتظره منه ..وما أحبه هو هذه القصص التى يرويها علي والتي تبدو حقيقية أحياناً وأحياناً كثيرة أظنها لا تعدو أن تكون خرافات وأساطير ..

فلقد كنت شغوفاً لمعرفة كل شيء عن هذه البلاد الجديدة ، وعن العادات والتقاليد واللهجات وأحوال الناس الاجتماعية عندهم..

و كان هو يجيد سرد الغريب والعجيب من القصص و الحكايات .. وكثيراً ما كان يحكى لى عن النداهة التى جزم كثير من أهالى بلدته أنهم رأوها رأى العين أو سمعوا صوتها .. وعن الكائن الضخم الذى يظهر فى النيل ليلاً عند كتمال القمر!!

كانت أسيوط هى الدنيا الجديدة التى كنت أحلم بها فى هذه السن من مقتبل حياتى .. فروحى ونفسى كانت حبيسة فى قريتى النائية حتى غادرتها للجامعة .. فعشقتها وعشقت أهلها ولهجتهم المميزة .. وشوارعها وحواريها وهوائها .. كل شئ ..

لكن ما أتعبنى فى أيامى الأولى من غربتى هو قلة الخبرة فى الحياة اليومية وحسن التصرف ..كنت أمتلك المال ولكنى لا أعرف الأماكن والمطاعم التى تناسبني .. فكنت لا أهتم كثيراً بالطعام .. وأقبلت على التدخين بشراهة !!

الذى أجبرنى بعد ذلك لاقتحام المدينة بعد أيام قليلة من بداية العام الدراسى هو أننى طلبت من أحد الزملاء أن يدلنى على مكان المكتبة التى تبيع كتب الكلية وهى خارج الجامعة فى مكان ما فى المدينة .. ولم تكن بينى وبينه قرابة ولا معرفة سوى أننا من بلد واحدة .. لكننى ظننت أنه سيقوم معى بالواجب .. وحينما طلبت منه ذلك اومأ برأسه وقال لى: موافق ولكن بشرط !! فقلت له و ما هو ؟ قال : أود أن تقوم بتقديم وجبة فراخ مشوى لى !!!

و أندهشت لهذا كثيراً بل كان صدمة !

قلت له: أننى حديث عهد فى المدينة ولا أعرف المطاعم التى تقدم هذه الوجبات .. فبادرنى قائلاً : أنا أعرف ... فقلت له: إذا لنذهب

للمكتبة أولاً فالوقت قد تأخر وأخشى أن يتم إغلاقها ... فقال لى : بل المطعم أولاً !!

لم أجد بداً من ذلك ولا وقتاً للتفكير ووافقت وذهبنا ، وجلس هو وأكل بشراهة وهو ينظر لى فى تعجب ويسألنى مستغرباً : كيف لا تلتهم هذا الطعام اللذيذ..؟!

أما أنا فقد كنت مشفقاً على الإنسانية والمروءة التى كنت أظنها لا يمكن أن تنحدر مثل هذا الانحدار، وقمت ولم أأكل شيئاً على الإطلاق!

وقررت فى اليوم الثانى أن أقتحم الحياة فى المدينة وحدى مهما كلفنى الأمر من عناء .. و أن أكتسب خبرتى فى الحياة وحدى ..

من أجمل العادات التى تعلمتها فى بداية الحياة آنذاك شراء الكتب و هذا الرجل الذى يبيع الكتب والمجلات بجوار مطلع كوبرى الهلالى أمام محطة أسيوط ، وكنت كل يوم بعد صلاة المغرب مباشرة أتوجه إليه عابراً شارع يسرى راغب الذى أتذكر منه كل شئ حتى الآن !

و لا أستطيع أن أصف سعادتى وأنا عائداً إلى غرفتى و محملاً بالكتب.. و كان معظمها أدب إنجليزى مترجم .. وعرفت لأول مرة يوسف إدريس وأنيس منصور ومارك توين وسارتر وفولتير و روبرت لويس ستيفنسون .. أما تشارليز ديكنز فقد عرفته وقرأت له قبل أن أقرأ لأى أديب عربى !

وعشقت القراءة ووجدت فيها انفتاحاً على العالم وعلى الفكر .. وامتلأت غرفتى بالكتب وامتلأت رأسي أيضاً .

يوسف.... أيّها الصديق

تعرفت على أول صديق لى من أسيوط .. اسمه وسف ، ومع حبى له نذرت أن اسمى ابنى على اسمه .. و قد وفيت بهذا النذر فى يوم ١/ ١ / ٢٠٠٨ و الغريب أن هذا حدث فى أسيوط أيضاً !!

وكان يوسف هذا من أكرم من قابلتهم فى حياتى ، أما كيف بدأت المعرفة فقد كان ذلك مصادفة..فقد كانت هناك مباراة كرة قدم بين المنتخب المصرى فى إحدى البطولات لا أذكرها الآن .. وقد أصرعلينا .. أنا ومجموعة من الطلاب المغتربين الحياري أمثالنا حيث لا أهل ولا بيت فى الغربة ، أن نذهب معه لمترله لمشاهدة هذه المباراة المهمة ، أما أنا فقد رفضت الذهاب معه كمبدأ .. أن الذهاب لمترله وإكرامه لنا لن نستطيع أن نرده له .. وكيف نرده ونحن "محتاسون" فى الغربة .. ولكنه أصر إصرارا عجيباً حتى أنه غضب منى أيّما غضب .. ولم أجد بداً فى النهاية وذهبت معهم ، كان المترل عبارة عن عمارة كاملة من أربع طوابق ملك أبيه .. بجوار مسجد سيدى جلال الدين السيوطى الذى ينحدر نسبه إليه .. وكان والده رحمه الله الحاج عيد يمتلك أكبر معارض الموبيليا فى منطقة العتبة الزرقاء التجارية ..

والذى كنت أخشاه قد حدث.. فقد احتفى بنا صديقنا أيما احتفاء .

و بعد يومين وجدته ينتظرنى أمام مدرج الكلية وهو يركب دراجته النارية! صافحته، وقال لى : اركب .. قلت له إلى أين؟

فقال إلى المنزل طبعاً .. لأن المنتخب المصرى سيلعب مبارة مهمة جداً اليوم وأنا أستبشر بك ..

فجاوبته أننى مشغول .. وليكن ذلك فى يوم آخر.

ولكنه صمم فى إلحاح عجيب .. ولم أجد مفراً منه ..

و الكرم فى المرة هذه هو ذاته فى المرة الأولى ،وقابلت والده ووالدته اللذين كانا أشدا كرماً وأدباً وأخلاقاً ..

وأصبحت عادة عندى.. حينما أسافر من قريتى إلى أسيوط أتوجه مباشرة لمنزله و فى نهاية اليوم أعود إلى غرفتى وغربتى وكتبى ..

فى هذا الجو الجديد لك أن تتخيل هذا المنظر البديع ، المعرض والمنزل فى قلب منطقة شعبية حيث الحياة البسيطة والجو المفعم بالعراقة وعبقرية المكان والزمان !

أن أجمل ما كنت أراه هو هذه الفرحة التى كانت ترتسم على شفاه العروسين وأهلهما أثناء تفقدهما المعرض وانتقاء أساس منزل الزوجية والحياة الجديدة والأمل فى أيام قادمة تحمل السعادة والهناء .

و كنت أعشق الجلوس بجوار الحاج "عيد" كثيراً فى المعرض الموجود بجوار المنزل ، وهو رجل عصامى وثرى جداً وكريم جداً جداً .. وكثيراً ما قابلت أولياء الله الصالحين عنده .. أشهرهم هو الشيخ "أبو بطانية!" هذا الشيخ يعرفه أهل أسيوط جيداً .. قابلته مرة واحدة

هناك، و هو عارٍ تماماً لا يرتدي سوى بطانية فوق اللحم .. ولا أعرف سبباً لذلك بالتحديد!

بعد ذلك زرت معظم محافظات مصر فى عملى بمهنة المحاماة وعرفت أناساً كثيرين لكننى لم أجد أحداً يعشق أولياء الله الصالحين والصوفية مثل أهل أسيوط!

إنها حياة جميلة وجو أجمل مفعم بالتاريخ وحضارة عريقة تستطيع أن تلمسها فى أى مكان فى هذه المدينة العتيقة ..

ناصـــر ٩٧

أثناء زيارتى لصديقى يوسف قابلته .. ابن عمته .. ناصر ..

و ناصر هذا من أغرب الشخصيات قاطبة ، والمصادفة الغريبة أننا ثلاثتنا يوسف وهو وأنا نحمل نفس تاريخ الميلاد!

من أول وهلة تستطيع أن تجزم أنه من زمن ليس زمننا .. أنه من زمن قيس بن الملوح و جميل بثينة ... أنه يتنفس عشقاً وحباً وولهاً ، وكثيراً ما كان يغيب عن وعيه حينما يذكرها ..!!

وتعجبت كثيراً من قصة حبه وعشقه الذى دفعه حتى حافة الجنون!

عندما قام يوسف بتعريف كل واحد منا .. وحينما سألنى فى أى مكان أسكن .. وحينما أخبرته بالمنطقة التى أسكن بها اغرورقت عيناه وأصابته صبابة، وأخذ يتنهد بعمق .

وعرفت سبب ذلك بعدها بأيام قليلة .. فقد كانت ليلاه تسكن فى نفس المنطقة التى أسكن بها أنا !

و رأيتها مرة واحدة .. كانت نحيفة جداً ذات بشرة خمرية ولم تكن جميلة .. أو هكذا حسبتها .. !

وعندما علم والدها بقصة حبه لابنته ، هدده عبر الهاتف كثيراً . . ووالدها شرس جداً ، وتوعده أكثر من مرة بقتله .. وقد حدث فيما بعد أن حاول ذلك لولا إرادة الله الذى أنقذته من بين يديه !

قام صديقى بالدخول فى إحدى الطرق الصوفية وأصبح زاهداً ناسكاً!! وتحول ناصر من شاب عربيد إلى مريد فى إحدى الطرق الصوفية !

فقد وجد أن تقربه إلى الله سوف يساعده على الزواج منها.

وكان يعود متأخراً كل ليلة .. فلا أحد يلفته عن ذلك ، فوالده طاعن فى السن وأخيه الأكبر رجل أعمال ويعيش فى الإسماعلية ، وهو أخيه لأبيه .. أما شقيقه الآخر فهو أصغر منه بكثير...

وكان يمر بى قبل أن يذهب للبيت والاستعداد لصلاة الفجر ويحدثني عما رآه وتعرض له من نفحات !!

و كنت فى الفرقة الثانية .. وفى سكنى الجديد أيضاً حيث أننى قمت بتغير السكن بعد خبرتى التى أكتسبتها العام المنصرم من الدراسة وتفقد المدينة المسحورة!

كنت فى الطابق الرابع وكان هو ينادينى كل ليلة حتى عرف أهل الشارع كله هذا الميعاد وزائر ما بعد منتصف الليل.. وكل ليلة أنظر من الشرفة وأطلب منه الصعود ولكنه يخبرنى أنه فى عجالة من أمره ، ويود الاطمئنان على والحديث لبضع دقائق.. وأنزل أنا له .. ولكن الدقائق تصبح ساعات .. ويأتى آذان الفجر .. ونذهب للصلاة فى (مسجد ناصر) وكان يصلى بنا رجل من أعظم ما يكون الرجال .. أنه الأستاذ مختار موجه فيزياء .. صاحب تلاوة وخشوع لم أرهما فى حياتى ! فكنت لأول مرة أعرف البكاء والخشوع الشديدين فى الصلاة بهذه الصورة والنورانية والصفاء ..

و كنا فى رجوعنا ندلف إلى محل الجيش بشارع الجيش ونشترى الخبز المضاف إليه التمر ونتناول إفطارنا هذا ونحن نتسكع فى شوارع أسيوط .. ونستمتع بهواء الصباح العليل ولحظة ولوج النهار في الليل..

كان ذلك يحدث مراراً وشبه يومي.

ثم في ليلة من ذات ليالى الشتاء القارص ، وكنت أذاكر فى أحد كتب الدراسة ... كانت الواحدة وخمس دقائق صباحاً .. لم أعرف سبباً أو معنى للذى دار بذهنى فى هذا التوقيت بالذات وجال بخاطرى!!

فجأة وكأننى أرى أمامى صديقى ناصر يخرج من منزله يجرى اتصالاً هاتفياً بحبيبته .. ففى عام ١٩٩٧ لم تكن هناك هواتف نقالة بعد .. وكانت هناك كابينة هاتف صغيرة أمام منزله.. وتحدث معها وكأننى أسمع كل كلمة دارت بينهما!

أما كيف حدث ذلك وتفسيره فلم أعرف !

عندما زارنى فى اليوم التالى وأخبرته بما تخيلته فى الليلة الماضية وعن الحديث الذى دار بينه وبين حبيبته .. بل أكثر من ذلك أن المدة التى تحدث فيها إليها هى سبعة عشر دقيقة ... فتح فيه إلى آخره فى ذهول وقال لى : كيف عرفت هذا ؟ أن ماقلته حدث بالحرف الواحد وفى نفس التوقيت بالدقيقة والثانية، وكاد يجن.. وطلب منى تفسيراً وأقسمت له أننى لا أعرف أى تفسير .

مدد یا دکتور

غاب عنى عدة أيام .. فقد انشغل بهذا الموقف الأخير كثيراً.. بل ذهب عقله وجنونه بمحبوبته ، وظن أننى أستطيع أن أعرف أخبارها عن طريق الموهبة الجديدة الخارقة التى اكتشفها بي !

زارنى ذات ليلة وصافحنى وعانقنى كأننا لم نر بعضنا منذ سنوات.. على الرغم أنها بضعة أيام لم تجاوز الأسبوع !

ثم نظر لى قائلاً : أبشر

ففلت : بماذا ؟

وأجاب : د. "م .ض" بنفسه يريد أن يقابلك !!

- من هو د "م .ض" ؟

- هو فى تعجب : ألم تسمع عنه ؟

- إطلاقاً ...

-: أنه أشهر ولى من اولياء الله الصالحين واحد العارفين بالله الذين عرفتهم أسيوط !!

أنه دكتور فى جامعة الأزهر ويقصده الكثيرون ومن شتى أنحاء الجمهورية لحل مشاكلهم .. أنه يمتلك قدرات خارقة ..!!

- لكني لا أتحمس أن أتعرف عليه ..

وتعجب هو كثيراً من ردة فعلى على دعوته وقال لى مستنكراً:

- كيف ترفض دعوة مثل هذا الرجل العظيم الذى يتمنى أى شخص الجلوس بين يديه ولو دقائق ..؟!!

و بعد إلحاح أقنعنى بالذهاب من أجله ومن أجل توطيد العلاقة بينه وبين هذا العارف بالله.

وذهبت وقابلته فى منزله .. وتركنا صديقى وحدنا..

و لدهشتي كان رجلاً كفيفاً فى الخامسة والأربعين من عمره .. يمسك بمسبحة كبيرة بعض الشئ مصنوعة من الخشب .. وأمسك بها بين أصبعيه وتوجه بعينيه إلى أعلى فى خشوع محركاً رأسه بعد كل هنيهة من أعلى إلى أسفل ومن يمنة إلى يسرى .. وساد صمت لبضع دقائق ..

قلت له : دكتور "م" ... ما هو الشئ الذى حدث لى .. أقصد الخاطر والعرض الذى رأيته أمام عينى وحدث مع صديقى ناصر ومن يحبها ؟

فرد على قائلاً :إنها نفحة الكشف !!

قلت له دهشاً : لا خبرة لى بهذه الأمور على وجه الاطلاق !

فقال بهدوء : أنها نفحة و هبة من عند الله ، يمكن أن توفق فيها وتكون مصاحبة لك إذا دخلت فى طريقة صوفية .. أو ذكرت الله كثيراً !

فقلت له : أننى لا أرى نفسى كفؤاً لكى أدخل فى طريقة صوفية ، أننى شخص عادى جداً بل ربما أقول أننى إنسان عاصٍ !!

رد على مسرعاً : هذا هو بداية الطريق !

-كيف ؟!

-إن اعتراف الإنسان بتقصيره فى جنب الله هو بداية الطريق إلى الله .

-ولكننى مازلت طالباً ووقتى مشغول فى الدراسة.

-أجل ... يمكنك ذلك بعد التخرج ..

ثم صمت قليلاً وقال لى :

يوجد بك خير كثير.. وأهلك طيبون وقريبون من الله ...

شكرته فى خجل ...

ودار حديث بينى وبينه ، فعلم أننى قرأت كثيرا لأبى حامد الغزالى والأئمة الأربعة ، وأننى أعشق الشيخ الشعراوى كثيراً ، وأننى فى هذه الأيام أقرأ فى الفلسفة والأدب الإنجليزى ..

وسره ذلك كثيراً .. وكان يعاملنى معاملة الصديق لصديقه ، والأب لابنه ، والشيخ لمريده .. وكثيراً ما حدثت كرامات "حسب وصفه" على يديه.. فقد طلب منى أن أتردد عليه فى المقهى الذى يرتاده كل يوم بعد صلاة االعشاء حتى منتصف الليل !!!

وبدأت أتردد عليه فى المقهى هذا وفى مترله أيضاً .. وعاصرت قصصاً غريبة معه .. وعلى الرغم أننى بالنسبة له طالب ليس فى جعبته شئ ولا زاد من علم إلا أنه كان يحبنى ولايزال حباً كبيراً أعتز به ، وأنا على ود ووصال به حتى يومنا هذا ... فى يوم من ذات الأيام

كنت لدى إحدى قريباتى فى القاهرة رحمها الله ..وأثناء حديثها قصت لى قصة ابنة جارها التى تخطت الثلاثين بأربع سنوات ولم تتزوج ... والغرابة والمشكلة ليست فى تخطيها هذا العمر .. إنما وجه الاستغراب فيمن يخطبها ،فلا تكاد تمر عدة أيام إلا ويفسخ الخاطب خطبته دون سبب !!!

والفتاة جميلة مهذبة وميسورة الحال .. ووالدها مهتمة ومهمومة بحال ابنتها التى تخطب كل شهر أو شهرين ، ويهرب الشاب دون سبب واضح حتى كادت الفتاة تزهد فى الزواج وتلغيه من حياها .. وهى تحدثنى عن هذه القصة التى كانت تراها عجيبة ..

تذكرت الدكتور الشيخ "م.ض" .. وجال بخاطرى شئ .. أعتدلت فى جلستى وتحدثت إلى قريبتى حديث الواثق الخبير في هذه الأمور :

إن هذا الموضوع حله عندى إن شاء الله ..وما أن أنهيت أخر كلمة حتى نظرت لى فى استغراب ولهفة وسألتنى :

- كيف ؟

قلت لها أننى أعرف رجلاً من أولياء الله الصالحين وبمشيئة الله سأتوجه إليه فى أسيوط حين تسنح لى الفرصة... و أخبرتنى هى أن ذلك شئ مهم جداً وأنه سيكون سبباً فى سعادة الفتاة وأمها في سعادة كبيرة.

وبالفعل ذهبت إليه وأعطانى ورقة مكتوب فيها آيات من القرآن.. ولكنها مكتوبة بمداد من نوعية خاصة .. مكون من ماء الورد والمسك ودم الغزال!! و ما أكثر ما تلطخت يداى بهذا المداد

أثناء الكتابة !! فالدكتور "م .ض " رجل كفيف .. وعندما أكون فى زيارته ويأتى شخص فى صحبة أهله وقد جزم الأطباء أنه لا يوجد به شيئاً عضوي ملموس أو معروف علمياً لحالته .. وقتها يتوجه بهذا الشخص إلى أحد المشايخ .. ومحظوظ جداً من يعرف الدكتور "م .ض " ... فالناس تأتى إليه من كل فج عميق، ومن مختلف المحافظات والبلاد ..ومختلف الرتب والمراتب أيضاً! عدت إلى القاهرة وأعطيت هذه الورقة لقريبتى لكى تعطيها للفتاة ووصفت لها كيفية الاستخدام لم يمر شهر إلا وكانت الفتاة متزوجة!!

كيف حدث ذلك ؟ لا أعرف حتى الآن ... ولكنه حدث!

نعود لصديقنا ناصر الذى لم يترك باباً إلا طرقه ، ذات مرة فى وقت الأصيل مررت عليه فوجدته يجلس أمام مترله مع شيخ طاعن فى السن يتجاوز المائة عام من عمره ، وبعد أن صافحتهما أشار لى أن أنتظر قليلاً حتى ينهى حديثه المهم مع هذا الشيخ الذى يبدو عليه أنه لم يخرج للدنيا منذ عهد بعيد ، وأنه من الممكن أن يكون من أهل الكهف !

كان ناصر يتحدث معه فى اهتمام وانتباه بالغين ، ويبدو أنه يريد شيئاً مهماً من هذا الشيخ .

بعد قليل أخبرنى ناصر أنه سيحصل على كتاب قديم جداً يعود لمئات السنين !! هذا الكتاب به عدة صفحات مهمة ، هى "عدية يس" ...

وبعد محاولة حذرة محفوفة بالمخاطر ، فقد كان الكتاب يعد أثراً نادراً وأوراقه أصابها الوهن ويكاد لمسها يمزقها .. أخيراً نجح فى حمل

الكتاب وتصوير هذه الأوراق ، وطلبت منه أن يقص علىّ ما سيحدث معه بعد قراءتها ..

وفى إحدى ليالى الشتاء جائنى وهو يتصبب عرقاً ويرتعش!

وقال لى أنه قرأ سورة يس ٣٠ مرة ، وكان من المفروض أن يقرأها ٤١ مرة .. وحينما سألته عن سبب توقفه عن تكملتها نظر إلى بعينين جاحظتين أرهقهما السهر وقال لى: إن أشياء كثيرة حدثت فى الغرفة .. فالمصباح المتدلى فى السقف أخذ يتمايل يمنة ويسرة وأن المقاعد أيضاً تحركت وارتفعت لأعلى وأن نور سطع فى الغرفة !

وسألته في ذعر : وماذا فعلت بعد ذلك أيها المجنون ؟

أجابنى وهو يرتعد : لقد لذت بالهرب والفرار من خارج الحجرة ومن خارج المنزل كله .. فلقد شعرت برعب وخوف شديدين وخرجت هائماً فى الشارع وأنا مذعور ومازلت !!

حاولت بعدها مراراً وتكراراً أن أخرجه من هذه الصبابة والعشق الذى كثيراً ما كان يأخذه إلى غياب عقله وإدراكه ولكن دون جدوى .. وانتشرت قصة حبه .. فكل العائلة والجيران عرف بهذه القصة وهذا الجنون ، فلم يترك أحداً فى أى تخصص أو علم إلا استوقفه وحكى له قصة عشقه ، وطلب منه أن يساعده فى الحصول على محبوبته ..لكن دون جدوى .. مسكين ..

كنا نخرج بالليل كثيراً .. وكان أجمل مكان يحب هو أن يتحدث عن محبوبته هو كرنيش النيل وأمام مديرية أمن أسيوط !

وكثيراً ما كان يأتينا تنبيه من ناحية مبنى المديرية أن نغادر .. خاصة إذا كانت الساعة قد اقتربت من الثانية صباحاً !!

أما الطلبة الزملاء فى السكن فكانت تتملكهم الحيرة فى أمرى .. أين أذهب كل ليلة ! ولماذا لا أعود إلا إذا اقترب الفجر ! وكيف لا أخشى دوريات الأمن التى تبحث عن أى مغترب وتستوقفه وربما تحيله إلى أمن الدولة .. أن أواخر التسعينيات كانت من أصعب الأعوام التى شهدتها أسيوط فى القمع والاعتقالات .. خاصة مع الطلاب المغتربين .

لكننى كنت دائماً أحب المغامرة والخروج عن المألوف والحياة فى حرية وانطلاق ...

هل أردت أن أعوض سنوات عمرى الأولى التى كنت فيها حبيس القرية ؟! ربما .. حتى الآن السفر والترحال والسهر والتسكع فى شوارع القاهرة والمدن الأخرى ، وقراءة وجوه البشر، وعاداتهم وهمومهم وآلامهم هو ما يشغل فكرى ..

مدد يا عم الشيخ
صالح أبو خليل !!!

نعود إلى ناصر و أجواء العفاريت إياها ..

فقد كانت الطريقة الصوفية التى التحق بها من أجل أن يحصل على محبوبته هى "الطريقة الخليلية" ، وهى واحدة من عشرات الطرق الصوفية الشهيرة فى مصر .

ذات يوم بعد صلاة المغرب ، زارنى ناصر وطلب منى أن أذهب معه إلى منزله؛ لأن هناك شيئاً مهماً يريدنى أن أراه!

وذهبت معه و أدخلني حجرة الضيوف المطلة على الشارع فى الدور الأرضى ،وتركنى لدقائق قليلة ثم عاد وهو يمسك بصورة ذات حجم كبير موضوعة فى برواز ذهبى منمق ، وكان وهو يحملها ينظر بإمعان فيها ، ويمسكها بحذر شديد كأنه يمسك أنبوب به بعض جزيئات اليورانيوم المشع !!

ثم جلس بجوارى ، وأطال النظر فى الصورة ، ثم طلب منى أن أتناولها منه بحذر شديد ، فهى صورة الشيخ صالح أبو خليل وهو شيخ الطريقة الصوفية الذى يمتد نسبه – كما قال لي – إلى سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن الصعب جداً أن ينال أحد هذه الصورة .. واقتنائها علامة من علامات القبول ..

و حملت عنه الصورة و وضعتها على فخذي ، ونظرت إليها ، وأطلت النظر .. وشعرت بأن الشيخ صالح يتحدث إلىّ ! ويقول لىّ وارد عليه ! كيف هذا ؟ لا أعرف !

وكان ناصر ينظر لى فى ترقب شديد تارة ، وتارة أخرى إلى الصورة ، وفجأة انتابتنى رعشة وانتفاضة! وكادت الصورة تسقط من بين يدى لولا أنه وفى حركة لا إرادية مد يديه فى غاية السرعة وأمسكها عنى !!

ثم نظر لى سائلاً فى حيرة :

ماذا حدث ؟

فقلت : لا أعرف.. والتزمت الصمت ...

دخل هو ليضع الصورة داخل حجرته كأنها قطعة أثرية نادرة يخشى عليها.

ثم جاء يقول لى :

– علينا الآن أن نذهب

فسألته : إلى أين ؟

فقال لى : الساحة الخليلة !!

فقلت : ولم ؟

فقال : لابد وأن تدخل معى الطريقة الخليلة.

فجاوبته :لا.. لن أحب أدخل أى طريقة .. فليس هناك وقت لهذه الأمور .. علىّ أولاً أن أهتم بدراستي فحسب .

و لكنه أصر إصرارًا عجيباً .. وفى نهاية المجادلة طلب منى أن نقوم فقط بزيارة هذه الساحة ومصافحة الأخوة هناك ثم العودة .. مجرد تعرف على شئ جديد سمعت عنه كثيراً ولم أشاهده .

وقد كان !

الساحة الخليلية هى عبارة عن شقتين متقابلتين فى الطابق الأرضى من العمارة المواجهة لمسجد الحرمين خلف محطة القطارات بأسيوط ، الشقة اليسرى هى عيادة للدكتور / "ع . م" طبيب نساء ونقيب أطباء أسيوط وخليفة الشيخ صالح أبو خليل فى محافظة أسيوط!! أما الشقة المقابلة فيطلق عليها ساحة ، وكلتاهما مفتوحتان ليل نهار للذكر ومقابلة الخليفة إذا كان موجوداً..

ولكل محافظة خليفة واحد إلا أسيوط فلها اثنان والخليفة الثانى هو المستشار /" م . م " رئيس النيابة الإدارية بالوادى الجديد حينذاك .

حينما اقتربنا إلى الساحة شعرت برهبة ، فما قرأت عن الطرق الصوفية والعارفين بالله وما لهم وما عليهم والكرامات الكبرى سأشاهده بعد دقيقة أو اثنتين ، وأمسك صديقى بذراعى ودخلنا ، وتوقف فيما بين الشقتين ونظر إلى يساره فلم يجد صخباً ولا أخوة له وهذه علامة بأن الخليفة ليس موجود ، فدخل إلى الحجرة اليمنى والتى أول ما ترى فيها أمامك ..حجرة صغيرة خصصت لتحضير الشاى للمريدين ..

وما أن دخلنا إلا رأينا أحد الملهمين يقوم بعمله المنوط به !!!

والملهم بضم الميم وفتح الهاء هو هذا المريد الذى أعطاه شيخه نفحة الإلهام ! أى أنه يجلس بين إخوانه فى الطريقة ويقوم بمدح الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وآل البيت الأطهار بأسلوب به سجع جميل ، وهدوء وطمأنينة وهو مغمض عينيه ثم يفتحهما وينظر

بعينيه ويشير بأصبعه إلا أحد المريدين من حوله ويقول له فى نبرة المديح أشياء تدور بينه وبين شيخه .. فالملهم لا يفعل شيئاً سوى استقبال الرسائل من شيخه وتوجيهها للمريد .. وهذه الرسائل والكلمات لا يفهمها إلا المريد نفسه..وهى غالباً تكون عن المشكلات التى يواجهها المريد فى الطريق إلى الله أو المشكلات فى حياته الخاصة ، أو مواعظ وحكم الشيخ للتثبيت على الطريق ، وهذا الإلهام لا يوجد فى أى طريقة أخرى!

وحتى إذا ما اقتربت أنا وصديقى إلى هذه الحجرة ، وكان أحد الملهمين كما ذكرت يقوم بإلهامه لبعض إخوانه المريدين ، وكان وجهه إليهم وظهره إلى الباب ، فغير وجهته ونظر إلى الباب حيث ناصر وأنا ... ونظر لى وقال فى أسلوب المدح والسجع الجميلين الهادئين فيما معناه أن الذى يحدثنى هو الشيخ صالح الآن ! .. أى رسالة منه لى مفادها أننى رأيت صورة الشيخ صالح منذ قليل عند أحد المريدين ، وأخبرنى بالحديث الذى دار بينى وبينه !

وأخبرنى بالكلمات التى جالت فى خاطرى عندما كنت أمسك الصورة!

وهنا أصبت بالصاعقة والذهول!

كيف عرف هذا الرجل ما دار فى خاطرى بالحرف الواحد؟ ومن أنبأه بأننى رأيت الصورة عند صديقى؟

وجال بخاطرى أن هذا من عمل الشيطان ، فلا تفسير عندى سوى ذلك ، فنظر لى الملهم قائلاً فى نبرة المديح أيضاً : إن الشياطين لا تجلس بمجلس يذكر اسم الله فيه ويصلى على الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم !!

ونظرت فى الأرض خجلاً ..

وأخبرت صديقى بأن علينا أن نغادر الآن ، فهذا الذى رأيته يكفى جداً ، ولكن صديقى رفض.. وأخبرنى أن علىّ أن أدخل داخل الساحة .. ففى الداخل حجرة واسعة على أن أراها .. ودخلنا وأكتفيت بإلقاء نظرة عابرة من خارجها .. فالحجرة عبارة عن حجرة عادية جداً خلت من كل شئ سوى سجاد على الأرض وصوراً كثيرة للشيخ صالح أبو خليل و والده وأجداده مصفوفة على الحائط !!

وكان ناصر يود أن نمضى أكبر وقت ممكن .. فقال لى : إن هناك صورة لرجل أعلم أنك تحبه كثيراً .

فسألته : من ؟

فقال : الشيخ الشعراوى..إن له صورة و الشيخ صالح يجلس بجواره !!

وفى الحقيقة كان ذلك إغراءاً كبيراً لى .. فأنا أعشق الشيخ الشعراوى عشقاً كبيراً وأجله إجلالاً عظيماً، فهو قطب زمانه وآية من آيات الله الكبرى .

ودخلت وشعرت بالخشوع والطمأنينة .. أما الطمأنينة فتسللت إلى روحى ونفسى بمشاهدتى شيخ الطريقة يجلس بجوار الشيخ الشعراوى ، فما كان للشيخ الجليل أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً !

فجأة دبت فى الساحة حركة غير عادية ، وكان شيئاً غير عادي سيحدث فى الثوانى القليلة القادمة ، وحدث هرج ومرج ، وزاد عدد الرجال فى الساحة و ازدحم الناس ازدحاماً شديداً ، وكنت أنا أنظر

فى ترقب و ارتباك ، ونظرت لصديقى ناصر فوجدته يبتسم ويستبشر ويهلل ويكبر بصوت منخفض ، فسألته : ما الأمر ؟

فأجابنى : إن الخليفة د "ن م" المستشار "م.م" قادمان الآن وهذا شئ عظيم .

و خرجنا من الحجرة فى الساحة اليمنى متوجهين إلى الساحة المقابلة التى كان يجب أن تكون عيادة النساء للدكتور "ع.م" إلا أنه وهبها للطريقة وللمريدين !!

لم أتمكن من رؤية واحد من الخليفتين ، فقد كان الازدحام شديداً، والكل يحاول أن يفوز بتقبيل يد أحدهما أو مصافحته !

وتعالت الصيحات : مدد يا عم الشيخ صالح .

وكان الخليفتان رسولين قادمين من عنده ويحملان النفحات والبركة التى من الممكن أن تصيب واحداً من المحبين الملتفين حولهما !

وما كان يميز صديقى هو أنه شخصية اقتحامية لا تخجل .. فحياة العربدة التى كان يحيها منذ زمن ليست ببعيد ما زالت تعطيه الجرأه فى التعامل والحديث مع الآخرين دون شعور أو تعمد منه.

و طلب منى أن انتظره قليلاً .. فعليه أن يشق هذه الصفوف ويدخل لمقابلة الخليفتين فى أمر ما.

وتركنى وأخذ وقتاً ليس قصيراً فى طريقه إلى الحجرة التى يوجد بها الخليفتان ، وأخذ يزيح فى أدب بيديه مستأذناً إخوانه فى المرور.. وما أن اقترب إلى باب الحجرة التى يهابها المريدون كثيراً ، ولا أحد

يدخل إليهما أو يقابلهما ويتحدث إليهما إلا إذا كان مقرباً جداً أو له حاجة ملحة .. فعلى الجميع الانتظار لخروجهما والاستماع والمناقشة فى الوقت الذى يحدده الخليفتان أو أحدهما حسب انشغاله وفراغه .

و اقترب ناصر إلى باب الحجرة وأبلغ من يقف على الباب أن عليه أن يقابل الخلفتين فى أمر ما، ولم ينس أن يتم كلماته بقوله ... مدد يا عم الشيخ صالح... فهو يعلم أن تلك الكلمة هى المفتاح للأبوب المغلقة ، والشفيع عند أى مطلب أو سؤال !

و افسحوا له الطريق ودخل وسلم عليهما ثم اقترب وهمس للدكتور "م. ع" أن معه صديق من بلد العارف الكبير قطب الأزمان سيدى عبد الرحيم القناوى وأن د "مَ.ض" نفسه اثنى عليه ثناء حسناً وطلب مقابلته وصارا صديقين ، وهنا هلل الخليفة د. "م.ع" وكبر وأمر بفتح الباب و ونادى فى المريدين المتواجدين أمام الحجرة أن هناك أخاً جديداً سينضم للطريق .. و هنا صاح الجميع وهلل وكبر وتعالت الكلمات بكلمة مدد يا عم الشيخ صالح ... الله اكبر...

خرج ناصر فى زهو وافتخار.. فهو الداعى للطريق والمنادى للرفيق ..وانتبه الجميع وصارت أعينهم جميعاً تتوجه إلى فى ابتسامة واستبشار.. ولم لا ؟ فالإخوة يزدادون يوماً بعد يوم .. وهم كثيرون فى باقى المحافظات ، ولكن الكثرة ليست فى العدد .. فالمريد الصادق خير من آلاف الناس خارج الطريق ويجهل الوصول ومعرفة أسباب القبول عند الله !!

أما أنا فكنت لأول مرة أشعر أننى مسلوب الإرادة ، فالمسألة كانت لا تعدو أن تكون رؤية شئ جديد فى حياتى رؤية المعرفة والثقافة ومن باب السياحة فى أرض الله الواسعة ، أما أن أدخل أنا فى هذا المضمار من المضامير المكلفة على ذهنى ووقتى ، فلم تكن فى الحسبان إطلاقا.

واقتادنى صديقى إلى الحجرة حيث الخليفتين ، وصافحتهما فى أدب وتؤدة ، كان على يسارى د. "م.ع" الخليفة الأول ، وهو رجل يقارب الستين من عمره ذو وجه مستدير وعينين واسعتين لا تكفان عن الابتسام فى خشوع فى وجه المريدين ، ولا تكفان أيضاً عن الدموع عند سماع آيات الله البيّنات .

وعلى يمينى كان المستشار م .م.. وكان يبدو عليه الحدة والحزم.. وحاجبيه يدلان على أنهما سرعان ما يقتطبان .. نظر لى وسألنى :

– أى علم تدرس ؟

فجاوبته : كلية الحقوق ..

فنظر لى قائلاً : مدد يا عم الشيخ صالح ... بارك الله فيك ..

وطلب منى الخليفة الأول أن أضع يدى فى يده لأعطائى العهد ! وأن أردد ورائه ما سيقول ، وهنا انتبه الجميع واستعد لتجديد العهد، فليس المريد الجديد فقط من سيردد وراء الخليفة ، ولكن كل المريدين الموجودين .. وعلي واحد منهم أن يلمس كتفى ثم يلمس كتفه آخر وهكذا دواليك ..ويرددوا الكلمات التى سيقولها الخليفة وأنا أولهم !!

بعد أن انتهى الخليفة من هذه الكلمات التى كان فحواها هو التخلى عن المعاصى والعزم على عدم العودة إليها ، وعلى أن نذكر الله قدر الاستطاعة والدعاء للشيخ صالح وال بيته وال بيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم اختتم هذا المحفل بترديد الآية العاشرة من سورة الفتح " أن الذين يبايعونك أنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فأنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً" . صدق الله العظيم

ثم فتح الخليفة د."م.ع" أحد أدراج مكتبه وأخرج ورداً ومسبحاً، ونظر لصديقى الذى كان يقف بجوارى وقوف الفاتح العظيم وطلب منه أن يعلمنى كيفية قراءة الورد والتسبيح على المسبحة ذات التسعة والتسعين حبة .

وصافحنى الجميع وسط الدعاء لى بالوصول وأن أرى ببصيرتى آيات القبول ..وأخبرنى أحدهم أن الطريق ليس لمن سبق ولكن الطريق لمن صدق .

وخرجت أنا وصديقى وكأننى كنت فى عالم آخر لم أره من قبل ، عالم يفقد الإنسان فيه عقله وجوارحه ويكون فيه مسلوب الإرادة منجذباً لشئ ما فى روحه .

و لم أذهب ثانية إلى هذه الساحة إلى عدة مرات تعد على أصابع اليد الواحدة !!

أما صديقى ناصر فقد كان يذهب فى يومه عدة مرات ملاحقاً الخليفة "ع" مرة ، والواصلين والعارفين والكاشفين مرة أخرى ..

وفى إحدى الليالى جاءنى مستبشراً ونبأنى أن هناك حضرة كبيرة ستقام الليلة فى المسجد المقابل للساحة والتى تقام فيه الحضرات بوجود أحد الخليفتين أو كلاهما وعدداً كبيراً من المريدين الذين يختلفون فى درجات علمهم ووجاهتم .. فهناك تجد ضابط الشرطة والمستشار والطبيب ورجل الأعمال والعامل البسيط والفقير والغنى.. وشتى أنواع الناس .. وقال لى صديقى: إن الدكتور العارف بالله "م.ض" لم يحضر منذ زمن هذه الحضرة ، حيث أنه تابع للطريقة الخليلية .. وأنه سيحضر الليلة للمشاركة ..

و فى الحقيقة وددت أن أرى هذا الطقس من الطقوس ، وأرى ماذا يحدث فيها من غرائب !

فقد سمعت كثيراً عنها وعن النفحات التى يتعرض لها المريدون !

وذهبت ودخلت المسجد .. مساحته كبيرة جداً ..واصطف الجميع فى صمت وأدب ، وجاء الخليفتان وجاء د "م.ض" ... وأشار الخليفة الأول لأحدهم ليقومَ بتوزيع كتاب على كل واحد من المتواجدين ، والكتاب عبارة عن نهج البردة لِلْبُوصيرى .

وكان الخليفة يختار صفحات معينة ليقرأ هو منها ونردد نحن وراءه.

ثم أمر الخليفة بإطفاء المصابيح !!

وتقدم هو لمنتصف الحلقة ، واختار اسماً من أسماء الله الحسنى (الله) نردده وراءه ببطء وتؤدة فى البداية ثم ما يلبث أن تتدرج نبرة ذكر اسم الله عالية مسرعة !

ثم يقطع الخليفة الذكر لهذا الاسم ويشير لأحد المتواجدين وغالباً ما يكون رجلاً واصلاً فى الطريق ذو مكانة ومعرفة بطقوس هذه الحضرة الشريفة ،وانتهت الحضرة بعد حوالى ثلاث ساعات أو يزيد.

وبعد أن خرجنا اقتربت إلى د "م.ض" وصافحته ، ثم وجه سؤال لى قائلاً :

– هل رأيت شيئاً ؟

فقلت : أجل.

فسألنى : ما هو ؟

فقلت : رأيت الشيخ صالح يحضر حلقة الذكر وكان يرتدى عباءة بنية اللون !!!

فابتسم وقال : بالفعل..هذا قد حدث!

والشيخ صالح فى محافظة الشرقية ، ونحن فى أسيوط، أى بيننا وبينه مئات الأميال !! فكيف أراه فى حلقة الذكر؟ كيف ؟!!

ثم انقطعت عن هذا كله .. ليس لشئ سوى أننى كنت أريد أن أعرف شيئاً سمعت عنه كثيراً ، وفى الواقع كانت تجربة مثيرة جداً و غريبة أيضاً كل الغرابة.

ولا تزال هذه الطرق مسار حديث وجدال كبيرين ، فمن الناس من ينكرها جميعاً ، ومنهم من يقرها إقراراً كبيراً ومنهم من اتخذ رأياً وسطاً .. وأنا لست فقيهاً لأدلى بدلوى فى هذا أو ذاك ، ولكن على ما رأيت بعينى وروحى خلال تلك الساعات التى قضيتها معهم أنه

بالفعل هناك كرامات .. وأن ذكر الله وتلاوة أوراد وأدعية من القرآن والسنة هى من أبواب التقرب إلى الله ..

أما ما يؤخذ علي هذه ا' لمرق هى المغالاة فى حب المريد لشيخه، والإلحاح فى الطلب والدعاء بإصابة النفحات والمكرمات ، والسفر إلى الشيخ فى الزقازيق يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع !!

فهذا كله غير مبرر و غير مفهوم ...

وإن الحبيب الوحيد والمبتغى الفريد هو الله الحميد المجيد .. وحب رسوله وآل بيته واجب.. ولكن لا يجب أن ينسينا الطريق .. والطريق هو طريق الله وحده ، و لا يحتاج إلى وساطة أو قربان سوى إتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وعمرنا فى هذا الطريق قصير ، فلا يجب أن يقضى إلا فى ذكر الله وحده ، وحبه هو وحده ؛ لأنه وحده هو المعبود .. وهو ملك الملوك .. وهو الخالق .. وما دونه مخلوق.

الجامعة

لاشك أن حياة الجامعة هى أجمل الأيام فى عمر الكثيرين منا ، ففيها العلم ، وفيها التعرف على أناس من شتى الانحاء ، وتستطيع أن تعرف كثيراً من العادات والتقاليد ، والحياة التى تختلف من مكان لآخر ، وجامعة أسيوط من كبرى الجامعات فى مصر، بل لها رونقاً أصيلاً ينافس جامعة القاهرة نفسها ، الشئ الوحيد الذى كنت استنكره على كثير من الزملاء ، وكنا نسهب فى جدالات طويلة حوله ، هو الاهتمام المبالغ فيه فى تلك الصداقات الوهمية بين الفتيان و الفتيات ، وربما كان ذلك كذلك لطبيعة الحياة القروية لنا ، فلم يكن فى حسبان الكثير سوى معرفة الفتيات وعقد صداقات معهن .. وكنت أنا رافضاً لهذا الأسلوب واستهجنه أيما استهجان ، وأنكره على جميع زملائى،ناصحاً لهم أن وجودنا فى الجامعة هو للدراسة وليس للتسكع مع الفتيات .. أنه أسلوب غير حضارى وينم على اضمحلال الفكر وانعدامه فى كثير من الأحيان.

وكنت أسألهم لم لا يترك الموضوع للمصادفة أو نقاشاً جماعياً فى إطار الدراسة ؟

وقد قررت ألا أتعرف على أية فتاة أوالحديث مع أية واحدة .. وقد فعلت ذلك حتى أنهيت دراستى !بل أخذ الموضوع حيزاً فلسفياً فى كثير من الأحيان وكأننا فى مسرح (أوتيل دى بور جونى) أو مسرح (فوار دى سان جيرمان) بفرنسا .. فكثيراً ما كنا نتناقش فى

ذلك أمام المدرج قبيل وصول أساتذة القانون ، وتدور نقاشات بينى وبين بعض الزملاء التى تربطنى بهم علاقة صداقة وحب الفلسفة أيضاً ، أذكر ذات مرة أنه أقبل على أحد أصدقائى وهو ممن يجر ورائه قطيعاً كبيراً منهن ... ووقف فى مواجهتى وعلى مقربة منى ثم أخذ يمط فى شفتيه ويميل رأسه فى حركة عجيبة !

وابتسمت أنا وقلت له : ما وراءك يا عصام ؟

فقال لى : كنا نحسبك طيباً واتضح أنك مارد جبار !

وضحكت أنا قائلاً : لا أعرف ماذا تقصد ؟ أرجوك تكلم بوضوح ..لم يتبق سوى دقائق وسيبدأ د. عبد الخالق ثروت محاضرته فى الإجراءات الجنائية ولن أضيع المحاضرة من أجل هذيانك هذا .

فقال لى : هل تعلم الزميلات ماذا يطلقن عليك ؟

فقلت له : ألا يوجد لك حديث سوى الحديث عنهن ؟ أننى أشفق عليك كثيراً أيها المراهق ..

فنظر لى قائلاً : أنهن يطلقن عليك لقب عريس الدفعة.

ثم نظر لى فى تمعن يريد أن يرى وقع هذه البشرى التى زفها لى ..

ونظرت له دون أن ابتسم وقلت : وماذا بعد ؟

فقال : ألا يعنيك هذا ؟

جاوبته : لا يعنينى ذلك فى شئ .. أنهم أحرار فيما يقولونه وأنا حر ألا التفت إليهن .

وأخذ هو يجز على نواجزه ويتميز من الغيظ متهماً إياى أننى لم يخلق مثلى اثنان فى التكبر والعجرفة ..

فقلت له : إن هذا ليس تكبراً ..أنها مسألة مبدأ .. هل أنت سعيد وأنت تضيع أياماً وأسابيعاً وأنت تتبع واحدة منهن من أجل أن تتعرف عليها وتقف معها يوماً ما وترتشفان كاسات المياه الغازية وترتشفان كذباً وزوراً أنكم أحرار ومتحضرون.. أنكم أبعد ما تكونوا من هذه الحضارة والحرية .. أنكم عبيد.. عبيد الهوى والفراغ الفكرى .. أنكم اخترتم الهوى لتعبدوه؛ لأنه لن يكلفكم شيئاً .. لا تحصيل علم ولا فكر.. أن ضحكاتكم وضحكاتهن تثير عندى الشفقة والازدراء.. مساكين أنتم .. أننى أجزم أن الكاتب والمفكر الإنجليزى الساخر "الدوس هيكسلى" كان من الممكن جداً أن يستبدل روايته (عالم رائع جديد) بأن يكتب عن هرائكم هذا ...

أما هو فراح ينتقد إسهابى فى فلسفتى وكلامى قائلاً : أنت لا تستحق اللقب الذى أطلقنه عليك .. أنك جاهل ورجعى.. لكن المصيبة الكبرى والحقيقة التى أعرفها جيداً أنهن لا يلفت انتباههن إلا أمثالك ... من يزهد فيهن .. يا للعجب ..

أما سبب تسميتى بهذه التسمية أننى كنت أذهب إلى المحاضرة بالزى الرسمى ورباطة العنق .. وكنت أطول زملائى .. و إذا مشيت بين أحد لا يعرفنى، ظنّا أننى معيداً وليس طالباً خاصة الفتيات !!

أما حفلات الكلية فلم أحضرها إلا مرة واحدة وعلى إلحاح من أصدقائى ..

والحفلة كانت تقدمها القناة التلفزيونية السابعة .قناة شمال الصعيد .. وحدث وأن أُجريت مسابقة ذات جائزة مالية أثناء تقديم الحفل .. بين فريقين .. اثنان من الطلبة واثنتان من الطالبات ، وأثناء توقف كاميرات التصوير أشار المذيع والمذيعة أن أصعد إلى المسرح ..و كان ذلك الاختيار أيضاً أننى ارتدى حلة كاملة ورباطة عنق وظناً أننى واجهة للظهور فى البرنامج !!

لم أجد بداً .. وصعدت أنا و آخر وأصبحنا فريقاً، وصعدت فتاتان وشكلتا فريقاً منافساً.. ومن العجيب جداً وجعلنى أكاد أنفجر ضحكاً أثناء التسجيل أن إحدى المتسابقتين أرادت منى أن أخبرها بإجابة السؤال الذى طرح عليها !! وكانت الفتاة تريد أن تجاوب باستماتة ، وكان الموضوع غاية فى الجدية وكانت تتصبب عرقاً ... وأخذت تنظر لى فى استعطاف وبلاهة ولكن دون جدوى منى .

عجيبة هى المرأة..أنها تريد أن تكسب كل شئ وتستخدم كل ما لديها من أجل أن تحصل على كل شئ ..

وأعلن مقدما البرنامج والحفلة بفوز فريق الشباب على الفتيات .. وأخذت أنا الجائزة بعد إجابتى على جميع الأسئلة السهلة التى تنم عن جهل واضعها أو استخفافه بثقافة المتسابقين ، وخرجنا أنا وأصدقائى بعد أن أصروا أن أنفق المبلغ الذى حصلت عليه كجائزة عليهم .. وفعلت ..

وكانت هذه هي المرة الأولى والأخيرة الذى أحضر فيها حفل فى الجامعة ..

و السبب هو عدم إيمانى بهذا الهراء والصخب ، وأنه لا يعدو أن يكون نوعاً من الترف ..

مع المخابرات..

كانت لنا مغامرات

كان لي صديق من إحدى قرى سوهاج ، وصديقى هذا ذو صفات مميزة .. و ما كان يميزه هو ذكاؤه وخفة دمه ومرحه وتقديسه للصداقة والعلاقات الاجتماعية أو هكذا كنت أظن !

وهو من عائلة ثرية ومعروفة.. معظم أخوته ليسوا أشقاء .. لم يكن على قدر من الثقافة ..

و كان يعتمد على ذكائه وسرعة بديهته فى كل شئ .. و كان يصغرنى بعامين .. وبعام دراسى واحد فى نفس الكلية وكان يحبنى ويثق فى كثيراً، وكان يستشيرنى فى كل شئ فى حياته .

وكان معه اثنان آخران: أحدهما: ابن أخيه فى كلية الزراعة والآخر: بلدياته فى نفس الكلية أيضاً.. و بلدياته هذا كان من الشخصيات النادرة .. كانوا يطلقون عليه لقب الغبى .. وكان هو نفسه يقول أنه أغبى مخلوق فى الوجود .. يقولها وهو يضحك على نفسه ضحكات هسترية.. وكانت نحافته الشديدة وطول عنقه وأذنيه المفلطحتين يزيدنا ضحكاً أثناء حديثه .. و فى الحقيقة كان صادقاً فى قوله إلى حد بعيد .. لكن الغريب أنه أحياناً كان يقول آراءً حكيمة جداً!!

وحدث ذات مرة وكان ذلك فى شهر رمضان وكانت أيام الامتحانات قد اقتربت .. زارنى صديقى وأخبرنى أن شجاراً دار بينه

وبين باقى زملائه فى السكن وأنه سيأتى كل يوم لتناول وجبة الإفطار والسحور معى.. وأنه سيأتى معه أيضاً ابن أخيه وبلدياته وزميله "الغبى" ... وكان يعلم أننى لن أتأخر أبداً عن تقديم يد المساعدة له .. وأنه يثق فى ذلك كثيراً .. وأخبرته أنهم على الرحب والسعة فى أى وقت ..

وكان يأتى قبل آذان المغرب بدقائق .. وبعد تناول وجبة الإفطار نخرج للمقهى الشهير (اليمامة) بجوار كوبرى الهلالى.. نلعب الشطرنج ونتناول مشروب السحلب والشعير المثلج والشيشة التفاح لساعة ثم نعود للمذاكرة ..

وبدأت الامتحانات.. و كانت أعصابنا على أشدها.. فما أصعبها من أيام .. غربة ومسؤولية وتحضير الطعام وغسيل و كواء وتنظيف ومراجعة المواد والتحصيل .. وتصادف أن ذلك كله في شهر رمضان..

و ذات ليلة قبل يوم امتحان لى ، لم أخرج معهم .. و بعد أن قمت بتجهيز وجبة السحور انتظرهم .. لكنهم لم يأتوا ..وطال انتظاري .. و جلست في الشرفة ، وكانت فى الطابق الرابع أيضاً ولكنها فى شارع نايلة خاتون بمقربة من الجامعة من الناحية الأخرى..

وبعد برهة.. أتى ابن أخيه وزميله "الغبى" .. و لم يأت هو.. و ما أن دخلا حتي عاجلتهم بسؤالى : أين ثالثكم ؟

فقالا : لا نعرف !!

ـــ لا تعرفوا ! كيف ؟

لقد خرج من هنا وأخبرنا أنه سيذهب إلى مقهى عمر المختار لساعة .. لكنه لم يأت حتى الآن !!

ـــ ألم تبحثوا عنه عند أصدقائه وزملائه ؟

ـــ بحثنا دون جدوى !!

مرت نصف ساعة وسمعنا طرقاً شديداً على الباب وذهبت أنا مسرعاً لأجده هو.. و دخل إلى الحجرة مسرعاً دونما يصافحنى أو ينطق ببنت شفة.. وسمعت صوتاً لصديق له يصعد درجات السلم مسرعاً وحينما اقترب منى قال لى :

ـــ اعتنى به جيداً .. يبدو أن أمراً جللاً قد حدث له ... فقد وصل إلى المسكن للتو ولم يشأ أن يرد على أياً منا ويخبرنا ما خطبه!

و وعدته أننى سأفعل وانصرف هو ودخلت أنا الحجرة فوجدته قد دخل إلى الشرفة ويجلس على حافتها وجسده كله ينتفض .. وخشيت عليه من السقوط .. وطلبت منه الدخول ويقص علينا ما الأمر .. و لماذا هذه الخوف كله الذى يبدو عليه ؟!

وجلس بجوارنا ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة رغم تكرار ابن أخيه على سؤاله ..ماذا حدث؟

و كأنه فى عالم آخر أو فى اللاوعى .. أخذ يحملق فى سقف الحجرة تارة وفى المائدة الموضوعة على الأرض وكأنه يريد أن ينسي شئ يخاف منه تارة أخرى !!

و فجأة وبحركة سريعة جداً جلس على المائدة وقال لنا : إن الوقت قد تأخر والفجر قد اقترب وعلينا أن نتناول سحورنا الآن .. أليس كذلك ؟!!

وجلسنا نتناول طعامنا .. جلس هو على يسارى وجلس صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين على يمينى ، و ابن أخيه فى مواجهتى ..

ورجع هو يحملق فى سقف الحجرة تارة وفى الطعام تارة أخرى .. و كانت يداه ترتعشان وجسده كله ينتفض !!

وبعد دقيقة أو دقيقتين تحدث قائلاً :

لن أستطيع أن أخبركم بما حدث .. لقد طلبوا منى ذلك وأخبرونى أن أى شخص سيعلم بما حدث سوف يتم اغتياله فوراً !!

أما صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين فقد فتح فاه وهو مملوء بالطعام و هو يجلس القرفصاء ، ورفع رقبته الطويلة إلى أعلى وثبت على هذا المنظر لدقيقتين وكأنه تمثال فى متحف الشمع !!

وبادرته سائلاً : من هم ؟

فقال لى : لا أستطيع أن أجيب .. فأجابتى فيها تضحية بحياتكم !!

ازداد قلقنا وحيرتنا ، ولم نستطع أن نكمل طعامنا .. فما حدث افقدنا الإحساس بأى شئ سوى هذا الغموض الذى اكتنف صديقنا الليلة .!

ولكن صديقى لم يقو على الصمت طويلاً ،

فنظر إلينا قائلا : أننى لا أستطيع تحمل هذا وحدى ولابد أن أتكلم.

ــ إذن تحدث ..

ــ قبل أن أتحدث لابد أن يعدنى كل واحد منكم بألا يفتح فمه بكلمة واحدة مع أى مخلوق على وجه الأرض ...

نظرنا إليه أنا و ابن أخيه وقلنا : بكل تأكيد ... أما صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة و الأذنين المفلطحتين فكان لايزال يفتح فمه وعيناه مفتوحتان قلما أغمضهما .. ونظر إليه قائلاً : وأنت بالذات أيها الغبى لا تتحدث بشئ مما ستسمعه الآن .. أريدك أن تسمع وتفهم كلامى لمرة واحدة فى حياتك ويا ليتها تكون هذه هي المرة ...

واستطرد هو قائلاً :

بعد أن خرجت من هنا ، توجهت إلى مقهى عمر الخيام ، وبعد دقائق وقفت سيارة فارهة سوداء أمام المقهى وخرج منها رجلان طويلان .. وسألنى أحدهما:

أنت فلان ؟

وأجبته : نعم ...

ثم طلبا منى أن أستقل السيارة معهما والغريب أنى فعلت دون أن أسألهما من أنتما وإلى أين سنذهب.. بعد برهة قاما بتعصيب عينى فلم أر شيئاً على الإطلاق ... و بعد نحو ساعة تقريباً آخرجاءنى من السيارة واقتادانى ولم أعرف أين أنا !!

دخلنا مبنى ثم نزلنا درجات سلم ثم صعدنا ثانية ، ونزلنا مرة أخرى فى طرقات يبدو أنها ضيقة .. وفى نهاية المطاف أدخلونى حجرة وأجلسونى على مقعد وكان فى مواجهتى أكثر من رجل ، أظنهم أربعة أو خمسة ... بدأ واحد منهم بسرد تفاصيل حياتى وعائلتى وأصدقائى وكل شئ عنى !!

وبعد نقاش معه .. تحدث آخر إلى قائلاً :

نريد أن تعمل معنا لمصلحة الوطن !!

فرددت عليه فى استغراب : أنا ؟!!

ثقال لى : نعم أنت..فسوف ....

(اعتذر عن عدم سرد التفاصيل التى أخبرنا بها صديقى للدواعى الأمنية) ...

فأجبته : لا .. لن أترك أهلى أبداً وأذهب إلى أى مكان ...

فرد علىّ قائلاً : لا تجب الآن .. سنعطيك فرصة للتفكير.. لكن إياك ثم إياك أن تفتح فمك لأى مخلوق على وجه الأرض بما دار هنا أو الموضوع برمته مع أى أحد .. أن ذلك سيكلفك حياتك وحياة من ستخبره بذلك ....

ثم نظر لى صديقى وقال:

و خصوصاً أنت يا عبد الباسط .. أنه أخبرنى أنه يعلم مدى ثقتى وحبى لك ، و قال أنه يعرف عنك كل شئ وأنه لا خوف منك أبداً ، ولكن على إلا أخبرك بشئ إطلاقاً وأن استمر بصداقتى معك ...

بعد أن فرغ من هذا الحديث شعر هو أنه استراح كثيراً من الحمل الملقى على ظهره ، وأننا نحمل معه مشكلته وهمه ..

و أدركنا جميعا أننا فعلاً فى خطر ، وعلينا أن نواجه الحدث فى هذا التوقيت الخطير .. فنحن فى المدينة غرباء .. و في أيام امتحانات نحتاج إلى قمة التركيز والصفاء الذهنى ، وصادف ذلك كله شهر رمضان .

ساد الصمت المطبق الحجرة للحظات.... وشعرت أنا بمسؤولية تجاه الموقف .. فأنا أكبرهم سناً .. والطلاب مثل المجندين بالجيش .. من سبقك بيوم فهو يسبقك فى الأقدمية .. و كان على أن التقف دفة القيادة التى تهوى إلى يدى دون إرادة منى.. و الأوقات العصيبة تمنح الإنسان التدرب على مواجهة نوائب الدهر ومشاكل الحياة .

أعتدلت فى جلستى ونظرت إليهم قائلاً :

اسمعوا ما أقوله جيداً :

إن الأمر يبدو خطير جداً، ونحن مازلنا طلاباً أصحاب خبرة قليلة فى الحياة لمواجهة مثل هذه المخاطر ، ونحن هنا من أجل شئ واحد وهو الدراسة والرجوع إلى أهلنا سالمين فى المقام الأول .. أننا هنا غرباء فى المدينة حيث لا قريب ولا أحد يهمه أمرنا.. ولا يوجد معنا أحد إلا الله وكفى به وكيلاً .. و أنا على يقين أننا سنعبر هذه الأزمة بسلام ، إن الله لن يضيعنا ومن يتوكل عليه فهو حسبه.. ولا تنسوا أن أهلنا جميعاً يدعون لنا بالنجاح والعودة إليهم سالمين ... علينا فقط أن نقوم بما يجب القيام به والأخذ بالأسباب ثم ندع الأمر كله لله ..

نظر إلى ابن أخيه سائلاً :

وما هو الشئ الذى يجب أن نفعله الآن ؟

فجاوبته : يجب علينا توخى الحيطة والحذر.. أنهم بلا شك يعرفون الأماكن التى نتردد عليها وسيتم مراقبتنا!

علينا أن نتصرف بتلقائية وبصورة طبيعية ونحيا حياتنا العادية ..

كان وقع كلامى شديد بعض الشئ ولكن لم يكن هناك بُدٌّ من قوله ..

ونظر صديقى إليهم قائلاً :

: إن ما يقوله صحيح تماماً .. علينا أن نتبع كلامه فهو أكثرنا خبرة فى الحياة ، و لابد من أن يتولى الأمر رجل واحد يتبعه الباقون جميعاً فى سمع وطاعة ، فأنا فقدت التركيز تماماً ... و أومأ ابن أخيه بالموافقة ..

و نظر إلى صديقه الغبى ذي الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين قائلاً :

لابد أن تعى ما قلناه جيداً وعليك أن تكف عن تصرفاتك الحمقاء ولا تفكر فى شئ إطلاقا .. عليك فقط أن تنفذ ما يقال لك فقط .

أما صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة فلم يتحرك له ساكناً وكأنه لم يسمع أو يفهم شيئاً !

ثم خرجت أنا للشرفة لإحضار المنشفة وإذا بى أرى رجلاً يقف على ناصية الشارع ينظر إلى شرفتى .. و أدركت تماماً أنه منهم .. فقد بدأ ما توقعته يحدث بالفعل !!!

ولأول مرة أذق طعم الخوف والرعب ، و على الرغم من هذا الرعب الذى انتابنى إلا أنه كان على أن اتصرف كقائد وألا أظهر أى شئ من القلق أو الخوف ...

هَمّ الجميع بالانصراف بعد آذان الفجر ..

و وقف صديقى على باب الغرفة وقال لى :

لا أعرف كيف أشكرك .. أو ماذا كان سيحدث لولا وقوفك بجوارى؟ فقد أقحمتك فى مشكلتى دون أى داع أو ذنب لك ...

فرددت عليه : لا تقل هذا يا صديقى العزيز .. وإذا لم تجدنى فى موقف مثل هذا فلا معنى للصداقة إطلاقاً، وهذا واجب لاأستحق الشكر عليه ...عليك أن تذهب الآن وتنال قسطاً من النوم .. يبدو عليك الإرهاق الشديد لما رأيته هذه الليلة ..

- نعم ..سأحاول...و أنت ؟

لدى امتحان ولن أنام حتى رجوعى من الجامعة .. لا تشغل نفسك بى .. سأتدبر أمرى... وسأنتظرك على الإفطار إن شاء الله ..

فى أمان الله .

فى المساء وبعد الانتهاء من وجبة الإفطار ، كان علينا أن نمارس حياتنا العادية ، وما أن خرجنا إلى الشارع حتى رأيته .. أنه نفس الشخص الذى رأيته ينظر إلى الشرفة فجراً !!

وتملكنى القلق ، وخشيت أن ينطق أحد منهم بكلمة أويلمح للموضوع الذى قلب حياتنا رأساً على عقب... فأسرعت الخطي ثم

توقفت فجأة ونظرت لأصدقائى بحجة الحصول على ثقاب لأشعل سيجارة ، ونظرت من بين أكتافهم إلى ما ورائهم ، فوجدت الرجل يتتبعنا بالفعل ، وحينما اقترب منى صديقى وهو يشعل عود الثقاب همست فى أذنه أننا مراقبون.. وعلينا أن نتوخى الحذر ونتصرف بصورة طبيعية ..

و صديقى كان يمتلك سرعة بديهة ورد فعل ، و دلفنا إلى شارع يسرى راغب متوجهين إلى المقهى الذى نرتاده دائماً .. وجلسنا نلعب الشطرنج أنا وصديقى وبجوارنا ابن أخيه يتابع اللعب.. أما صديقنا الغبى ذو الرقبة الطويلة فقد آثر أن يوجه كرسيه إلى ناحية الشارع ليشاهد المارة ، وكانت عيناه تبدوأن كأنهما تجاهدان النوم جهاداً ، وكان هو أيضاً يدمن التدخين إلى حد بعيد ، ومن المحتمل أن السيجارة هى الشئ الوحيد الذى تجعله يقفل فمه بعض الوقت وهو يضم شفتيه الدقيقتين عليها ويسحب نفساً عميقاً من الدخان ، وسرعان ما تدمع عيناه كأنه أول مرة يدخن .

بعد نحو ساعة ، لاحظت أن هناك رجلاً آخر يجلس داخل المقهى ينظر إلينا كثيراً !!!

لم أجد أى تفسير أو مبرر حينها على كل هذه المراقبة !! فنحن لسنا بالخطورة بمكان لهذا كله .

ولاحظ صديقى أثناء اللعب أن عينيي ليست ثابتتين على طاولة اللعب ، ورفع رأسه ونظر لى.. ونظرت له .. و فهم ما أقصده تماماً .. فاعتدل في جلسته فى انتظار ما سأفعله أنا ..

و أشرت إلى النادل ودفعنا الحساب وغادرنا ..

وأردت أن أتأكد من هذا الشخص ، هل فعلاً يراقبنا أم لا .. فقد كان وجهه مميز بالسمار والأنف المدبب ،والجسد الذى بدى ممشوقاً ومنفتح الصدر ومفتول العضلات ..

كان بائع الجرائد والكتب ليس بعيداً عن المقهى ، فوقفت عنده كأننى أتفقد الجديد من الكتب وسط زحام الواقفين على رأس البائع، ونظرت إلى ناحية المقهى فوجدت الرجل خارج منها ويقترب منا!!

أردت أن أدع حداً لكل هذا الذى يحدث ، ولكننى لم أجد أى حل سوى التظاهر بأننا لا نعرف شيئاً وأن تمر الأيام القليلة المتبقية على خير ، وأن تنتهى أيام الامتحان على خير ، أكثر اللحظات قلقاً كانت تمر على هى بعد خروجى من الامتحان .. فقد كنت أتوهم أنهم سيلقون القبض علىّ داخل الحرم الجامعى .. فذلك أفضل مكان يقتادونى منه دون أن يعلم بذلك أحد.. فأنا أكون وحدى داخل خيمة الامتحان وأمامها .. ولا أعرف تفسيراً لهذا المعتقد الذى كان يراود فكرى حينئذ !

اقترب صديقى من انتهاء امتحاناته ومعها ستنتهى معاناته .

لكن ما حدث معه منذ أيام حدث معه ثانية ، لكن هذه المرة لم يتأخر فى الرجوع ، فقد كان الحديث معهم مقتضباً وقصيراً ، وأرادوا أن يحصلوا على موافقته ولكن دون جدوى، وأصر هو على موقفه .. وأصروا هم أيضاً !

جلس معى صديقى هذه المرة وحده .. وقال :

لا أدرى ماذا أفعل ، وهل على أن أخبر أهلى عما حدث ؟

وأهله أصحاب نفوذ فى قريتهم وأحد أعمامه عضو مجلس شورى.. وغيرهم كثيرون .. و لهم معارف بالقاهرة ومن الممكن أن يحموه..

و لَمّا وجدته حائراً وددت أن أطمئنه فقلت له :لا داعى للقلق صديقى العزيز .. أن هذه الجهات الأمنية لن تؤذيك أبداً .. فهم يعملون لحماية الوطن و لابد أن تكون أفعالهم هى مصلحة عليا للبلاد ، ولكننا لا نعرف.

وبعد أيام .. أنهى هو وابن أخيه وصديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين امتحانهم وغادروا أسيوط متجهين لبلدهم ..

أما أنا فقد كان يتبقى يومان على انتهاء امتحان نصف العام الدراسى الأول من الفرقة الثالثة ..

و ما كان يدور فى معتقدى من فكرة اعتقالي بعد خروجى من مخيم الامتحان قد وصلت لذروتها .. فلابد أنهم يريدون أن يتأكدوا ما إذا كان صديقى أخبرنى بقصته أم لا قبل مغادرة أسيوط ورجوعى لقريتى !

وانتابنى رعب شديد حتى أننى نسيت ليلتها أن أتناول وجبة السحور !!

وبعد خروجى من الامتحان هرعت إلى السكن، و جهزت حقيبتى فى عجالة،وتوجهت لموقف السيارت المتجهة لمدينة نجع حمادى التى وصلت اليها بسلامة الله بعد آذان المغرب بنحو ساعة !

أما ما حدث فى نجع حمادى فلم يكن أقل غرابة مما حدث فى أسيوط ..

بعد نزولى من السيارة .. ولا أكاد أصدق أن هذا الكابوس قد تخلصت منه وأخيراً سأرجع إلى أهلى وبيتى سالماً ، لم أجد سيارات متجهة لمركز دشنا إطلاقاً!! وكان نحو عشرة من الركاب ينتظرون مثلى..ولكن الوقت يمر دون جدوى ..

وفجأه توقفت سيارة مكروباص تحمل لوحات معدنية كتب عليها أجرة الأقصر .. والسيارة يبدو عليها أنها جديدة تماماً كأنها خرجت من مصنعها للتو واللحظة، أما سائقها فكان رجلاً أسود البشرة ضخم الجثة يرتدى جلباب بُنى اللون وعمامة كبيرة بيضاء .

وقد أشار إليه الركاب عما إذا كان متجهاً لمركز دشنا ليقلهم معه فأشار إليهم بالسلب ..

أما العجيب أنه أشار لى أنا!

وكنت متعب جداً .. فلم أذق طعم النوم منذ أيام ولم أتناول سحورى ولا وجبة الإفطار ... فجاهدت نفسى فى حمل الحقيبة الثقيلة فى يدى وما أن أقتربت منه قال لى : دشنا ؟!

فقلت له فى استغراب : نعم.

فقال : اصعد.

وصعدت السيارة وجلست فى المقعد الأمامى بجواره ووضعت الحقيبة جوارى ...

وتعجبت كثيراً.. لماذا لم يقم بتحميل سيارته من الركاب الكثيرين طالما أنه ذاهب فى نفس الوجهة ؟

ولماذا اختارنى أنا بالذات "أستقل السيارة ؟

لم أجد أي أجابة قط على أسئلتي هذه التى دارت فى رأسى المجهد...

هل هو يتبعهم ؟ هل سيذهب بي كما ذهبوا بصديقى لمكان لا أعرفه ؟

ومضى بسيارته يشق العباب كأنه مرتبط بتوقيت معين !

اقتربت السيارة من كمين شرطة الشعانية... الذى يقع فى منتصف الطريق مابين مدينتى ونجع حمادى.. و كانت هناك منضدة كبيرة أمام حجرة الكمين يلتف عليها أربعة من الرتب الكبيرة والكل يحمل فى يده جهاز لاسلكى .. و ما أن اقترب السائق من الكمين ومن هؤلاء الضباط حتي توقف !

وبدا فى ذهنى أن الدهشة والعجب يلاحقانى فى كل مكان وزمان ولا أعرف أى تفسير لما يحدث لى ..

لماذا توقف السائق ، على الرغم أن ذلك ممنوع قانوناً إلا إذا استوقفه ضابط أو رجل أمن ليسأله عن هويته وأوراق سيارته .. إذا لماذا وقف وبكل هذه الثقة ؟

و قام أحد الضباط وكان رتبة عليا على ما يبدو من سنه وزيه الميرى وفتح باب سيارة المكروباص وهم بالصعود وهممت أنا

بالخروج من مقعدى الأمامى ليجلس هو فى المقدمة احتراماً منى لرتبته وسنه .. لكن السائق رفض وقال لى: اجلس مكانك !!

وعلى طول الطريق لم يصمت الجهاز اللاسلكى أبداً من إرسال واستقبال التعليمات والأوامر الذى لا يفهمها أحد سواهم !

وأيقنت بالفعل أن شيئاً ما سيحدث ، وأن السائق سيرفض الوقوف فى مركز دشنا لتزولى من السيارة ...

ودخلت السيارة المدينة ونظرت إلى السائق وطلبت منه الوقوف لكى أنزل من السيارة ..

توقف السائق ونزلت من السيارة كما طلبت منه!

حينما وصلت إلى منزلى كنت أشعر أننى صحوت من كابوس عميق للتو واللحظة ...

وتناولت طعامى وتوجهت إلى فراشى ...

حاولت أن أعطى نفسى وعقلى بضعة دقائق لأفكر بكل هذه الأحداث العجيبة .. و لكن لم أجد أية أعصاب تحتمل التفكير أو بحث مقدمات لكى أصل إلى نتائج . .فالمقدمات مبهمة وغير تقليدية، فلابد من أن تكون النتائج مبهمة أيضاً.

بعد رجوعى لأسيوط مرة ثانية لم أقابل صديقى هذا، فقد قام بتغيير مسكنه وتغيير حياته كلية على ما يبدو ...

لا أعلم سبباً واحداً يجعله ينسى الأيام التى قضيناها سوياً على حلوها ومرها !

وانقطعت أخباره ولم أره ثانية حتى يومنا هذا !!!

***

الشخص الوحيد الذى قابلته بعد ذلك مرة واحدة هو صديقه الغبى ذو الرقبة الطويلة والأذنين المفلطحتين ... و حينما قابلته مصادفة فى الجامعة صافحنى .. و ضحك هو لتذكره الأيام الخوالى وضحكت أنا من تذكرى لغبائه الذى يعتز به كثيراً.

وسألته عن صديقنا ومشكلته فقال لى :

إن إخوته أجروا اتصالات بمسؤولين كبار فى القاهرة لكى يصرفوهم عنه ويسمحوا له أن يكمل دراسته ، وقد تركوه بالفعل وهو الآن يعيش حياة عادية جداً ! لكن هناك معلومة أود أن تصححها عندك ..

فسألت دهشاً :ماذا تقصد ؟

فأجاب : إن الجهة التى كانت تريد تجنيده ليست المخابرات العامة المصرية !!!

فعاودت أسأله فى استغراب مرة ثانية :

كيف هذا ؟ أذن من ؟!

فأجابنى : أنها أمن الدولة !!

ـــ أمن الدولة !

إذن لماذا أخبروه أنهم مخابرات عامة ؟

فأجابنى وهو يضحك :

هل تعتقد أننى أستطيع أن أفهم شيئاً فى هذا العالم من حولى ؟

وقبل أن أتركه سألته :

هل ما زلت تفتخر بأنك أغبى رجل فى العالم ؟

ضحك ضحكة هستيرية وتمايل بجسده النحيف يميناً ويسارا وأماماً وخلفاً .. وبدت رقبته أكثر طولاً ودمعت عيناه من شدة الضحك على نفسه ثم قال وهو يدخن سيجارته :

نعم .. أننى فخور جداً بهذه الصفة .. أنها تجعلنى مميزاً على الأقل عن باقى البشر .. و من يعلم .. ربما أنا الشخص الوحيد الذكى فى هذا العالم، وكل الناس أغبياء .. ههههههههه !!!!

فقلت له ضاحكاً :

كنت أخشى عليك من تراجع نسبة غبائك .. ولكن بكلامك هذا أيقنت أنك فعلاً أغبى رجل فى العالم وذي رقبة طويلة وأذنين مفلطحتين ...

صديقي عمر بن الخطاب !

وددت لو أننى أعرف أن أصفه بكلمات، ولكنى لا أستطيع ، فصديقى هذا رجل من نوع فريد ونادر جداً ، فهو رجل اجتمعت فيه الشيم والصفات النبيلة و دماثة الخلق كلها ، رجل تستطيع أن تقول أنه وليّاً من أولياء الله الصالحين .. و لكن سرعان ما تجده قد فاق هذا الوصف .. ففى حياته من الأعمال ما تفوق كل ولاية وكل طريق .

فهو فى عمله الجليل المحفوف بالمخاطر ، أشجع ما يكون الفارس، وأشد ما يكون على الظالم ، وأرفق ما يكون على المظلوم أوالبائس الفقير ..

إذا نظرت فى وجهه تعرف فيه نضرة النعيم ، نعيم الدنيا والأخرة، ولم لا ؟ فوجهه الأبيض الذى يخالطه حمرة نورانية قد سجد كثيراً وأطال السجود .. وقام الليل والناس نيام ، فأنار الله وجهه فى الصباح ...

وإذا قرأ القرآن فكأنك تسمعه من رجل نال الحظ الأوفر من العلم فى قراءة القرآن على يد أحد العلماء الكبار .

بل زاد على الحفظ تدبر آيات الكتاب الحكيم وراح يقرأ ويدور فى خاطره وينطلق لسانه بتفسير آيات الله الكريمة كان إلهاماً من عند الله قد استقر في قلبه وعقله .

أما من يشبهه فى ذلك النور ، وهذا العطاء وهذا الحفظ والفهم لكتاب الله هو زوجته وابنته ، فكلتاهما مثله خلقاً وأدباً وعلماً لدنيّا من عند رب السموات والأرض فالق الإصباح .

وهذا كله فى كفة ، أما الناحية الأخرى فهى أشد تميزاً و أكبر إجلالاً وأعظم أجراً عند الله و مثلاً وما أروعه من مثل فى إتقان العمل وتقديسه ،فهو لا يهتم إلا بشيئين اثنين فى حياته : أما الأول فهو الصلاة فى وقتها فى المسجد وما يتبعها من تلاوة القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار .

والشئ الثانى: هو التفانى فى العمل تفانياً لم أره فى حياتى ولم أسمع عنه قط .

فهو لا يكون فى عمله فى وقت العمل الرسمي فحسب .. بل كل وقته للعمل ، وهو فى مجال عمله لا يفوقه قرين ولا ينازعه فى تفوقه منازع ، بل تستطيع أن تقول أنه مرجعاً تستطيع أن ترجع إليه ودارا للفتوى تستطيع أن تستفتيه فى أى شئ خاص بعمله الجليل.

أنه صديقى العزيز سيادة العميد / مصطفى يس .. مأمور مركز شرطة دشنا سابقاً ومأمور مركز الخليفة بالقاهرة حالياً ..

والذى جعلنى متيقناً من ورع هذا الرجل وعظمته وهيبته التى يستمدها من الله العلى القدير وحده ، هو ما جرى من أحداث إبان الثورة المصرية فى الخامس والعشرين من يناير ، أذكر تلك الأيام جيداً بكل تأكيد فهى منا ليست ببعيد ..

أذكر تلك اللحظة التى أعقبت سقوط نظام مبارك من انهيار للأمن واقتحام مراكز الشرطة وإحراق الكثير منها .

و نظرت إلى القرية وإلى البلاد من حولى فوجدت الجميع فى ديارهم جاثمين كان صيحة أو ريحاً صرصراً عاتية قد ألمت بالناس ! وما دار بخاطرى مباشرة هو هذا الرجل النبيل، وخشيت من أن يحدث فى مركز شرطة دشنا ما حدث بأمثاله فى أماكن أخرى ، وتحدثت إليه عبر الهاتف ووجدته يرد على بنبرة تملؤها الطمأنينة والثقة والقوة ، لكن قلبى لم يطمئن ، فتوجهت إليه مباشرة ، والمسافة بنى وبينه هى نصف ساعة كاملة ..

وذهبت فلم أجد أحداً فى مبنى المركز ، وصعدت مباشرة إلى الطابق العلوى حيث مكتبه ،وكان باب مكتبه مفتوح كعادته دائماً ، ورأيته جالساً على مكتبه بزيه الميرى يمسك بقلمه وأمامه أوراقه ، وكان شيئاً لم يحدث ، وكان هناك ضابط ليس من قوة المركز يجلس معه ، وما أن رأنى إلا وشعر ببعض القلق ، فمن هو هذا الرجل الذى يرتدى جلباباً ويدخل على مكتب المأمور دون تردد ؟! وشعر المأمور أن ضيفه قد أصابه شئ من القلق فراح فى أدب وسرعة بديهة يعرفنى إليه ، وأخبره أنى صديق عزيز عليه ، وشعر الضابط الضيف بشئ من الراحة والاطمئنان .

أما العميد مصطفى يس فلم يتغير قيد أنملة عن ذى قبل ، أنه يقدس عمله وواجبه ، و لم يجرؤ ضابط فى ديوان المركز فى تلك الأيام فى النزول للشارع سواه ، فكنا نذهب للصلاة فى المسجد وكان يخرج هو دون حراسة ، ومن أين تأتى الحراسة .. فقوة المركز كلها عبارة عن مأمور المركز فقط ، فلم يكن فى أرض المعركة سواه .. أسد كما اعتاد أن يكون دائماً ، وكان يتصدى لأىّ محاولة لزعزعة الأمن داخل المدينة أو قراها ، وكان على الدوام يتحدث إلى ضباط

النقط بالقرى وحثهم على القيام بواجبهم المقدس فى كل الظروف وأن أمن المواطنين هو الواجب الأول لقوات الشرطة .

و كان ومازال هذا العميد الفريد يحظى بحب وتقدير جميع أبناء مدينتى وقراها وكل من يعرفه ، وكانوا يثقون جيداً فى نزاهته وأمانته وقربه من الله من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانوا يعلمون جيداً أنه لا يخاف أحداً إلا الله ، وأنه سيطبق القانون على أى أحد مهما كان ، ولا يزال الناس جميعاً هنا فى دشنا يذكرونه ويدعون الله أن يرزقهم برجل عظيم مثله .

و هو يجيد فن التعامل مع مختلف الناس ، فهو يحترم من يتمتعون بسمعة طيبة وكبار السن الوقورين ويعطف على البسطاء من الناس .

كنت أنهى عملى بالمحكمة قبل آذان الظهر وأتوجه إليه ، وكنت أجده فى بهو المركز فى الدور الأرضي ، يعطى تعليماته لهذا وذاك من الضباط صغار السن والرتب ناصحاً إيّاهم بإتقان العمل وإعطائهم الخبرة حيناً ، وحيناً آخر يقوم بقضاء حوائج الناس فتشعر أنك ترى قاضي القضاة فى عصور الخلفاء الراشدين !

ثم يصطحبنى إلى المسجد ونرجع وقد تم القيام بالمهام الأساسية من عرض واستقبال وإرسال الترحيلات والانتهاء من المحاضر واستلام وتوزيع الجراية وخلاف ذلك من أعمال المركز .

فنصعد إلى الطابق الثانى حيث مكتبه ، ولا أكاد استقر على المقعد حتى يأتى أصناف الشراب الساخن والبارد ، وهو شديد الكرم ، حتى يجعلك فى نفسك دون أن تشعر تردد المثل العربى القديم : "أكرم من حاتم الطائى !"

وأنا عادة لا أحب أن أشرب شيئاً عند أحد ، وإذا أجبرتنى الرسميات إلى ذلك وجدت نفسى لا أرتشف منها سوى القليل ، أما عنده فلا ، فأنا مازلت حتى هذه اللحظة أستطيع أن أشرب عنده أكثر صنف من الأصناف أمامى فى وقت واحد ! لا لسبب إلا أننى أعلم أن ماله حلال، بل فاق الحلال وأصبح فيه شئ كثير من البركة، وأن هذا الكرم نابع من قلبه ، و لك أن تتخيل قلباً لا يكف عن ذكر الله فى صدر يحفظ القرآن الكريم ..

ثم نبدأ الحديث الذى كثيراً ما كان عن القرآن الكريم ، وكثيراً أيضاً كنا نجلس نتحدث فى أية من آيات القرآن من بعد صلاة الظهر ولا يقطع حديثنا سوى آذان العصر! وكثيراً ما كان يُجرى اتصالاً هاتفياً بزوجته يسألها عن آية تتحدث عن موضع معين ، وتجيئه الإجابة مباشرة دون تفكير وتخبره بالسورة والآية الكريمة ثم موضع الآية من الصفحة فى المصحف الشريف !

ونذهب ونصلى العصر بوضوء الظهر .

وكان ذلك يتكرر كثيراً .

و العام الماضى سمع أهل دشنا بنبأ مغادرة المأمور المركز ، ولم أر رجلاً حَزن عليه الجميع لمغادرته مدينتنا مثل هذا الرجل ، وكثيراً ما استوقفنى الناس يسألونى عن صحة هذا الخبر ، وهم يتمنون أن يكون الخبر كاذباً وأنه سيظل المأمور معنا عاماً آخر أو ربما رضى الله علينا فيمد العام إلى أعوام، ولكنى للأسف كنت أعلم أنه سيغادر بالفعل ، وأجيبهم بالإيجاب ، فتعرف فى وجوههم الحزن ، ثم يطلبون منى وهم يعلمون ما بينى وبينه من ود أن أطلب منه أن يظل معنا عاماً آخر؛

لأن المركز يحتاج لمثل هذا الرجل العظيم الذى لم يدخله يوماً ما رجل مثله .

وحينما اقترب وقت سفره وعودته للقاهرة ووجدنى حزيناً مهموماً لهذا الفراق ، نظر لى قائلاً:أنت بالذات لا يجب عليك أن تتأثر برحيلى ، أنك تذهب مرة أو مرتين للقاهرة كل شهر ، وبكل تأكيد ستأتى ونتقابل هناك ..

وقد فعلت ولا أزال ..

في انتظار الملائكة

- ١ -

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل ، وفى أحد المنازل القديمة من بداية منطقة عماد الدين كنت أستطيع أن أراه من الطابق التاسع من الفندق الذى أرتاده دائماً بمقربة من مسجد الفتح بالقاهرة ،كانت هى تحتضن ابنتها ذات العام ونصف ، وكانت تعمل جاهدة إلا تنزل دموعها على وجه رضيعتها ، فالدموع لا تنقطع عن جريانها على وجهها الشاحب.

كانت تشعر أنها أكثر النساء بؤساً على وجه الأرض ، وكان ما تتعرض له من نوائب الدهر يجعلها فى مقدمة البائسات قاطبة..

منذ ثلاثة سنوات تزوجت برجلٍ فى نفس الشارع الذى تسكن فيه، وبعد تسعة أشهر من زواجها صعدت روح زوجها لبارئها، كان يعمل حمالاً للبضائع بشارع عبد العزيز التجارى وتهاوت على جسده النحيل بعض البضائع التى كان يسوقوها أمامه على عربة حديدية ذات عجلتين، ولكن الحمل كان كثيراً وأكبر من المطلوب، فمال عليه وسط زحام الشارع فمات فى الحال ، وعادت إلى منزلها لتعيش مع والدها فى هذا المنزل القديم، لكنها لم تعد كما خرجت ، فقد كان فى رحمها ثمرة زواجها الذى لم تهنأ به سوى عدة أشهر ، ووضعتها بعد أسابيع أنثى ..

كان أخوها الوحيد يسكن فى الطابق الأرضى مع زوجته .. وما هى إلا أشهر قليلة إلا وتوفيت والدها ، فأيقنت أن الدنيا قد ادبرت عنها وأظلمت تماماً .. أنها بفقدانها أمها قد فقدت كل شئ ..

أما هذا الإحساس فقد كان نابعاً من سوء خلق أخيها الوحيد وزوجته الشيطانة ..

و ما هى إلا أيام قليلة بعد وفاة أمها إلا ووجدت زوجة أخيها تقتحم حياتها وتبلغها أنها ستعيش هى وأخوها معها .. وقد حدث ..

زوجة أخيها هذه هي أبعد ما تكون من الإنسانية بمكان .. فهى تمتلك جسداً بشعاً دميماً .. لن تري أقبح منه .. ولا أعتقد أن من يراها سيتمهل ولو للحظة فى أن يفر من أمامها كما يفر الإنسان من قسورة!

أجمع الجيران كلهم أن أخاها لابد وأنه قد فعل فى حياته كبيرة من الكبائر التى لا يكفر عنها شيئاً فى الدنيا إلا بزواجه من هذه المخلوقة التى تشمئز منها كل نفس ، وتأبى منظرها أى عين ، وأن هذا التكفير سيمتد معه حتى يوم الحساب ، فما رأه من خلقها وخلقتها كفيلاً بأن يكفيه من شر نار الجحيم ! ولم لا وزوجته هى الجحيم نفسه!

أما أخوها فلا يقل عن زوجته سوءاً ، فهو قد أخذت به أصناف عدة من صنوف المواد المخدرة مأخذاً جعلته فاقداً لعقله ووعيه أكثر الوقت هارباً تارة من بشاعة زوجته ، ومن قسوة حماه المعلم متولى و المعلم متولى هذا هو من يستأجر المقهى أسفل المنزل الذى يقسمه إلى قسمين: الأول: مسكناً لابنته والآخر:المقهى الذى يأخذ معه ناصية الشارع ، وكان أخوها مجبراً على المكوث للحظات أمام آنية الزيت التى تقدح على نار مشتعلة طوال النار الممتلئة بعجين الفول والباذنجان، فقد آثر المعلم متولى على إلحاق هذه الآنية الغارقة فى الزيت وبيع الطعمية والباذنجان إلى المقهى..

والمعلم متولى لم يكن صاحب المقهى فحسب.. و لكنه كان من أشهر من يبيع المواد المخدرة فى المنطقة كلها.. وما المقهى إلا ستاراً لتجارته المحرمة ، وكان زوج ابنته هذا يقوم بعملية الشراء للمواد المخدرة بصنوفها وأشكالها المختلفة من أحد التجار بمنطقة زينهم ، لكن المكسب كله في يد المعلم وحده ، وهو لا يقل بشاعة ولا سوءا من ابنته ، كان صوته الأجش يفزع القلب ، فإذا تحدث كأنك تسمع صوتاً لحيوان ضخم مخيف يأتى صوته من بين ظلال أشجار الغابة العالية فى إحدى غابات الأساطير اليونانية القديمة !.. و جهه كبير متجهم ، وجسده الضخم غير المتناسق مدعاة للغرابة ، فحينما تراه يجلس على المقعد الخشبي فى مقدمة المقهى وأمامه منضدة وكرش كبير يخرج أمامه بعدة أشبار، تتعجب كل العجب علي مقدرة هذا المقعد الخشبى الصغير أن يحتمل هذا الوحش الضخم!

و كثرت الأقاويل عن أصل هذا الرجل السئ .. البعض يقول أنه نزح من الصعيد وكانت مهنته هى قاتل أجير وجاء هارباً وغيّر اسمه ومهنته ، والبعض الأخر يقول أنه كان يسكن هو وابنته هذه أسفل جبل المقطم ، وكان يقوم بتربية الخنازير ، ولما حدث الزلزال وماتركه من أحجار تهاوت على رؤوس القاطنين من أسفله، قدم إلى هذه المنطقة واستأجر المقهى وزوّج ابنته من هذا المنحوس.

- ٢ -

نعود للأرملة المسكينة البائسة،فها هى الساعة كما ذكرنا جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل، كانت تحتضن رضيعتها والدموع تنسكب من عينيها انسكاباً ،وما كان يؤلمها ويزيد من شقائها وبؤسها هو ما تلاقيه طفلتها الرضيعة من ألم ومرض من استنشاقها هذا الدخان المتصاعد دائماً من المقهى ومن أنية الزيت المحترق بشرائح الباذنجان السوداء ، وكان هذا الدخان وهذه الرائحة لا تغادر الحجرة وأن غادرتها تركت أثراً ، وكانت فى حجرتها المظلمة ، وقد أطلقوا هذا الاسم على هذه الحجرة منذ عهد بعيد؛لأنها تقع فى آخر البيت من الداخل بعد ممر ضيق طويل وكأنها لم تكن فى حسبان البناء بنايتها لبعدها عن باقى حجرات المنزل ، وكانت سيئة التهوية ، فلا تدخلها شمس ولا يدخلها نور ، فالبنايات أمامها قريبة ومرتفعة ، فكانت موضعاً لكل شيء مهمل ، وكل أساس قديم ، أو أى شئ زَهِدَ فيه أصحاب البيت ، ولم يكن يسكنها قبل أن تجبرها زوجة أخيها إلا الفئران! ولا تزال تشاركها السكن ، ولم تحظ المسكينة بشئ تنام عليه على الأرض إلا حصيراً قديماً مما تضمنته الحجرة من قديم الأساس ، والحجرة مظلمة ، لا يوجد بها سوى مصباح كهربائى صغير يصدر منه لون أصفر قاتم يلقى فى الصدر ضيقاً شديداً ويجعلك تشعر أنك فى عالم آخر كئيب غير الذى نعيش فيه ، ينعدم الإحساس فيه بالزمن

بل يكاد يتوقف ، ولم تكن الحجرة المظلمة هكذا فحسب، بل أسوأ من ذلك هو الدخان المتصاعد من مقهى الحاج متولى ، الذى صادفت فوهة مبخرة المقهى أعلى موقد الفحم الذى تجاوره أنية الزيت المحترق فتحة نافذة هذه الحجرة ، فجعلت منها جحيماً لايُطاق.

وكانت المسكينة تحيا حياة لم ترها أنثى من قبل .. هكذا كانت تظن هى ، ويظن من يعرفها أيضاً .

كان عليها أن تترك رضيعتها بعد أن يبدأ نور الصباح ينير الطريق إلى المخبز الموجود فى نهاية هذا الشارع الضيق ، ممسكة بيدها مقطفاً صُنِعَ من سعف النخيل تحمل الخبز عليه كل صباح ، ثم تدلف إلى عم شعبان الذى يضع قدرة الفول أمام مترله القريب من المخبز ، ثم تشترى من الصبى الذى يستيقظ مبكراً لصناعة الطعمية والباذنجان قبل أن يستيقظ أي من المعلم أو أخيها ، وعليها أن تفعل كل هذا كل صباح وقبل أن تستيقظ الشيطانة زوجة أخيها ثم تضع كل هذا على منضدة خشبية موضوعة فى الشرفة الخشبية القديمة المطلة على الشارع، حيث كان المكان المفضل للوحش أن تجلس فيه تنظر وتتسمع ما يدور فى الشارع وما يدور عند الجيران، وكانت المسكينة بعد أن تضع الطعام تهرع للاطمئنان على رضيعتها التى تخشى عليها من الفئران والقوارض أن تلتهم جزءا من جسدها أو أطرافها .

والطفلة بلغت العام ونصف، وهى أيضًا تشارك أمها البكاء، ولكنه بكاء الجوع ، والأم جف ثديها ، فمن أين له باللبن وهى لم تشبع من بقايا طعام تلقيه عليها زوجة أخيها ، وما كان هذا الطعام إلا بقايا شرائح الباذنجان المحترقة ، حتى فعل الزيت فى جوفها ما فعل من مرض ، وشحب وجهها وخارت قواها، لكن كل شئ من الممكن

أن يهون عليها إلا ابنتها الرضيعة ، وكم تمنت الموت كثيراً وما كان يسترجعها عن هذه الأمنية إلا ابنتها ، التى لا عائل لها سواها، فجدها لأبيها رجل طاعن فى السن مقعداً وظن أن خال الطفلة اليتيمة سيتكفل بها ويحسن تعهدها.

وهى تتحمل الجوع والألم ، لكن الرضيعة لا تحتمل ، كانت تخرج ثديها وتستجديه وتحاول جاهدة فى خروج قطرات منه ولكن الجود به كان عزيزاً.والأثداء قد بدأت تترهل وتذبل ؛ولأنها لم تحظ بالتعليم، فبالكاد تعرف تقرأ وتكتب بجهد وعناء ، فكانت تردد آيات قليلة من القرآن حفظتها من أمها رحمها الله ، وحفظت منها دعاء كانت ترقى بها ابنتها الرضيعة إذا خرجت ملبية أمر لسيدها ومولاها زوجة أخيها، كانت تشير بأصبع إبهامها على جسد ابنتها و تقرأ آية الكرسي والمعوذات وتكررها مراراً و تحتسبها فى كنف الله وحفظه، وتدعو الله أن يحميها من الفئران التى تعيش معها فى الحجرة المظلمة ، والأخطر منهم هذا الوحش زوجة أخيها وأبنائها الذين يشبهون القرود إلى حد كبير خلقة وحركة!

-٣-

لم يكن هناك من يشعر أو يهتم بهذه البائسة المسكينة سوى سيدة عجوز تبيع الحلوى الرخيصة للأطفال وبعض الأشياء زهيدة الثمن من علب ثقاب و مساحيق غسيل وغيرها.

وكانت السيدة العجوز تعطف عليها كثيراً، ولم تكن فى استطاعتها أن تقف وقتاً كافياً بجوارها تبث همها وحزنها ، فهى تخشى على رضيعتها من جهة ، ومن جهة أخرى لا تأمن إذا ما تأخرت على الوحش القابع فى المترل.

فكانت تختلس الدقائق القليلة فى طريق عودتها من المخبز، فقد كانت السيدة العجوز تبدأ يومها باكراً مع بزوغ نور الصباح ، وتدنو منها وتقبل رأسها وتطلب منها الدعاء لها وأن يلطف الله بها ويحميها من الشيطانة التى سكنت مترلها.

وكانت السيدة العجوز تحن عليها أى حنان ، وترفق بها أى رفق، ولا تنسى أن تعطيها قطعة حلوى من الحلوى الرخيصة التى تبيعها للأطفال ، لعلها تزيل شيئاً من مرارة وعلقم سكن فمها المقهور ولسانها المقيد.

و ذات مرة شكت البائسة للسيدة العجوز أمر رضيعتها التى تبكى ليل نهار من الجوع ، وأن صدرها قد نضب من اللبن ، ولا تعرف حيلة فى ذلك، وأعطتها السيدة العجوز قدراً من الأعشاب

ربما تسد رمق الرضيعة حتى تجد لمشكلتها حلاً ، لكن الأعشاب لم تسكن فى جوف الرضيعة ، وزادت آلامها وقلة حيلتها، لكن العجوز الطيبة قد قامت بعمل إذا ما قورن بالجنيهات القليلة التى تمتلكها يعد جوداً ما بعده جود ، وبذلاً ما بعده بذل ، فاشترت لها علبة من اللبن المجفف ، وهو بالنسبة لها باهظ الثمن وفائق لطاقتها ، ولكنها فعلت ذلك من أجل الأم البائسة التى لا تجد لها نفقة ولا منفق ولا يداً تربت عليها فى حنو ومروءة.

حتى إذا ما جاءت فى الصباح التالى وأخرجت السيدة العجوز هذه العلبة التى دهشت لها البائسة كل دهشة سائلة لها :

من أين أتيت بهذه؟

فأجابتها:لا عليك يا بنتى ، خذيها وأطعمى رضيعتك أثابك الله.

ـــ لكنى أعلم أنها باهظة الثمن ولا أريد أن أشق عليك.

ـــ أن رزق الله واسع،ورزقه ما له من نفاد،فردت عليها :

ولكن ..لا أستطيع أن أدخل المترل وهذه العبوة فى يدي...تعلمين أن هذه الشيطانة لن تتركنى أعيش ولو للحظة دون جبروها ..

فردت عليها السيدة العجوز :

لا عليك ، لدى حل.. سأحتفظ أنا بالعبوة وستأخذين أنت مقدار ما تحتاجينه لابنتك كل صباح فى طريق عودتك للمترل.

واقتطعت من إحدى الكتب الدراسية القديمة التى تحتفظ بها لكى تصنعها قراطيس تضع بعد الحلوى المنفرطة للأطفال، وكانت البائسة

وهى تدس هذه اللفافة من الورق فى صدرها وتسدل عليه منديلها القديم الممزق أشد حرصاً من أخيها وهو يبيع اللفافات التى تحوى الحشيش والأفيون وباقي المواد المخدرة !

و لحت السيدة العجوز سؤالاً حائراً فى عين البائسة .. كيف ستطعم الرضيعة وهى لا تملك من الحياة شيئاً ، لكن السيدة العجوز لم تنس أن تشترى لها أيضاً ما ترضع به رضيعتها ، واغرورقت عيناها بالدموع وطفقت تقبل يدها داعية أن يستر الله عرض ابنتها الوحيدة عفاف وأن يخلفها خيراً، وأن يثيبها الله خير الثواب جزاء معروفها.

ورجعت وأعدت فى سرية وكتمان لبنا لرضيعتها ، ونظرت إليها فى حنو و وضعت فم العبوة فى فمها الجائع فالتقمتها وأخذت ترضع فى شره.

واستطاعت الأم أن تذوق طعم النوم لساعة أو ساعتين متصلتين لا يقطعها بكاء ابنتها من الجوع.

ولكن الأيام تمر ، ويبدو من نظرات السيدة العجوز أن العبوة قد شارفت على النفاد ، وهى تعلم أن العبوة باهظة الثمن بالنسبة لها وتود لو تشترى لها أخرى ولكن الجنيهات قليلة وذات اليد قصيرة مغلولة بالفقر والعوز.

و أخذ الحزن والقلق يزداد ، وكلما نظرت لرضيعتها التى بدأت تعتاد على ميعاد رضاعتها،أشفقت عليها وانسكبت الدموع الغزيرة من عينيها انسكاباً.

وفى إحدى الأيام وهى عائدة من المخبز، تحمل على رأسها الخبز وتمسك فى بيدها الأخرى كيساً من الفول ، اقتربت من السيدة العجوز ودنت منها قائلة :

أعلم أنك كنت تتمنين لو استطعت أن تشترى عبوة أخرى من اللبن لابنتى، ولكنى أعلم الحال جيداً ، وأسأل الله أن يجازيك على ماتفعلينه من أجلى ، فأنت فعلت الكثير جداً ، ورأيت منك ما لم أره من رحمى وأقاربى الذين تنكروا لى ولم يعبأوا بحالى ، وما رأيت منك إلا ما تراه البنت من أمها الحنون ، وما سمعت منك إلا تثبيتاً لقلبى المكلوم وروحى اليتيمة ، لكن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ..

كانت السيدة العجوز وهى تسمع هذه الكلمات تحتجز دمعتين أرادتا أن تنحدران على وجهها الذى كثرت به التعاريج ...

أطرقت السيدة العجوز هنيهة ثم رفعت رأسها وكأنها تحمل على لسانها بشرى :

اسمعى يا بنتى أن هناك حلاً لهذا ،وسألتها فى لهفة :

وما هو ؟

إن الحكومة تعطى للفقراء والأرامل معاشاً ، وقد تضاعف المبلغ الذى آخذه كل شهر إلى مائة جنية ، ويقولون الآن وبعد الثورة أنه سيزداد إلى ثلاثمائة جنيه شهرياً ...

تخيلى يا بنتى لو أنك حصلتى على هذه المائة من الجنيهات ... ستستطيعين شراء اللبن الخاص بابنتك، وربما كانت الزيادة قريبة فتصبح المائة ثلاث!!

وفرحت البائسة فرحاً شديداً و اطمأنت لهذه الفكرة وهذا المصدر الذى يكفل لها إطعام رضيعتها ..

ثم نظرت للسيدة العجوز قائلة :

لكنى لا أحسن الخروج من هذا الشارع ، ولا أجد الوقت الذى أهرب منه من الشيطانة ، ولا أجد حارساً لابنتى منها ولا من القرود الذين يسمون أبنائها!

ولا أعرف شيئاً عن الأوراق المطلوبة لتقديمها ، ولا أعرف للمكان له سبيلاً!

وأطرقت العجوز ثم قالت:

لا عليك يا بنتى ، أعرف سيدة فاضلة تسكن فى أحد الشوارع القريبة ، تسكن فى مترلها العتيق وفاء لأيامها الأولى مع زوجها رحمه الله ، ولها ابن يبرها كل بر ويتردد عليها دائماً ، وهو يعمل محامياً فى أحد أحياء القاهرة الراقية ، ولا أظنه سيرد طلباً لوالدته إذا ما سألته أن يقدم لك يد المعونة،وابتسمت السيدة البائسة ..ثم أطرقت وقالت:

لكنك يا جدتى العزيزة لا تقوين على السير، أنك تجاهدين نفسك جهاداً كبيراً فى الخروج من المترل فى الطابق الأرضى المرتفع قليلاً من الشارع ولا تغادرين ردهته إلا بعد أن تغيب الشمس..

وردت عليها السيدة العجوز فى حنو:

لا تقلقى يا بنتى ، سأتدبر أمرى إن شاء الله .. والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ..

ومضت هى مسرعة فى العودة ، وهى تحمل الخبز على رأسها ، وكيس الفول فى يدها الأخرى وتحمل أيضاً بصيص أمل.

\- ٤ -

ولما كان صباح اليوم الثانى ، وخرجت السيدة العجوز من منزلها متجهة إلى منزل السيدة الثرية التى تودها أحياناً وتعطف عليها مع مثيلاتها من النسوة الفقيرات ، وكانت تجاهد جسدها الثقيل الهرم وقدماها لا تكادان تحملاها، وكانت تستند على حوائط البنايات تارة، وتستند على أحد أعمدة الإنارة تارة أخرى ، تريح قدميها ورئتيها من التعب ، وأخيراً وبعد أن وصلت أمام المنزل العتيق الذى كاد أن يكون أثرياً ولكنه يحتفظ ببعض هيبة وشموخ منازل أثرياء الزمن الماضى .

وما أن اقتربت من الباب إلا وألقت بجسدها الثقيل المنهك على الأرض ، وأخذت ترحف قرباً من الباب أكثر وأكثر ، وانتظرت أن يدخل أحداً أو يخرج لكى ترسل للسيدة صاحبة المنزل ، وما هى إلا دقائق وخرجت الخادمة ، فطلبت منها أن تخبر سيدتها أن هناك عجوزاً عاجزاً أمام المنزل تأمل فى عطفها وكرم أخلاقها فى مقابلتها ، وبعد هنيهة نزلت السيدة درجات السلم فى بطء وتؤدة ..واقتربت منها وصافحتها ، أما السيدة العجوز فراحت تسهب فى الدعاء لها وأن تقبل معذرتها لإزعاجها ، وقاطعتها السيدة صاحبة المنزل قائلة فى هدوء وعطف :

"لا عليك يا أمى .. فالتسالى ما شئت."

فقالت لها :

بارك الله فيك أيتها المرأة الصالحة أطال الله عمرك وحفظك وحفظ ابنك بعينه التى لا تنام ..

وقصت السيدة العجوز بإيجاز قصة المرأة البائسة .. وما يمكن أن يفعله ابنها حفظه الله من خدمة و مساعدتها من تقديم تلك الأوراق ، وهو عمل صغير لا يليق بهذا الابن زاده الله جاهاً ومكانة .. ولكن مثل هذا الصغير من الأمر سيكون سبباً فى سعادة أماً أرملة ، ورضيعة يتيمة ليس لهما أحد إلا الله ..

وأجابتها السيدة أن ذلك على الرحب والسعة ، وهاتفت ابنها فى التو واللحظة والذى بدا فى حديثه مع والدته ساهباً فى السؤال عن صحتها وأحوالها والاطمئنان على رضائها عليه ودعائها له، وأجابته الأم سريعاً ملمحة أن الوقت ليس وقت تحيات بينهما بل لأمر ما .

وأخبرته أنها تريد منه أن يسدى خدمة لسيدة يهمها أمرها جيداً ، وجاءها الرد منه سريعاً أنه على أتم الاستعداد بما تأمره والدته به، وأن ما يهمها يهمه أيضاً ، وبعد أن لخصت له القصة فسألها عما إذا كانت تملك شهادة وفاة لزوجها وميلاد لابنتها وبطاقة محرر بها أنها أرملة!

وسألت السيدة الفاضلة السيدة العجوز عن تلك الأوراق فأخبرتها أنها لا تملك إلا شهادة ميلاد ابنتها وبطاقة ثابت فيها أنها متزوجة.

ونقلت هذا إلى ابنها الذى طمئنها أنه سيقوم بتكملة الأوراق الناقصة ، وعليهم أن يرسلوا إليه البطاقة الشخصية وشهادة الميلاد وتاريخ الوفاة بالتقريب وسوف يقوم بعمل اللازم.

ودعت الأم ابنها البار قائلة له أنها سترسل له الأوراق غداً مع خادمتها.

وأنهت المكالمة وربتت على كتفُ السيدة العجوز التى راحت تدعو الله لها ولابنها دعاءا طويلاً ، وطلبت السيدة منها إلا تتعب نفسها فى المجئ إليها وأن خادمتها ستكون بينهما رسول.

وأخرجت مبلغاً من المال وأعطته إياها وأخذته السيدة العجوز على استحياء ، وحينما عادت وأخبرتها بما كان من فضل هذه السيدة وكرمها، سعدت باقتراب اليوم الذى ستضع فى يدها مالاً تستطيع به إطعام رضيعتها.

وحاولت السيدة العجوز أن تقتسم المبلغ الذى أعطته السيدة لها وكان ورقتين ماليتين الواحدة منهما فئة المائة جنية ، ولكن البائسة رفضت ، فماكان من السيدة العجوز إلا أن تشترى عبوة من اللبن الجاف للطفلة الرضيعة إلى حين أن ينصلح الحال.

وعرفت المرأة البائسة طعماً ولو قليلاً من الفرحة والأمل من إيجاد طريقة تكفل لابنتها ما يسد رمقها.

وأعطت للسيدة العجوز أوراقها وحلمها البرئ الذى يقترب من أحلام الطيور، ومرت ثلاثة أيام وجاءت الخادمة تقول للمرأة العجوز:إن السيدة صاحبة الطلب قد اكتملت كل أوراقها ولم يتبق لها إلا أن تتوجه للمكتب الحكومى الموجود عنوانه فى هذه الورقة ، فهى لابد وأن تقوم بالإمضاء على الطلب والأوراق بنفسها أمام الموظف المختص ، وسلمت الورقة لها وغادرت.

وكان ذلك يمثل مشكلة لا قبل للمسكينة أن تواجهها، فهى لا تستطيع أن تحيد عن طريقها ما بين المخبز وبائع الفول بجواره والصبى بائع شرائح الباذنجان السوداء الذى يستبق أخاها فى البيع أو قل أن استطاعت أن أخاها لا يكترث لهذه المهنة إلا دقائق معدودة ، متفرغاً لتجارته الأخرى ، ولا تفعل ما يزيد على ذلك سوى الدقائق القليلة التى تختلسها وتتحدث فيها مع المرأة العجوز ،إذن كيف تذهب ، وأين تضع ابنتها ؟!

وماذا لو عرفت الشيطانة بهذا؟

أما السيدة العجوز فلم تجد حلاً لها سوى أن تحضر رضيعتها،وتقوم ابنتها عفاف برعايتها هذه الساعة أو الساعتين التى تغيبهما ،و كيف ستخرج بابنتها من المترل دون أن تراها الشيطانة لعنها الله ؟ والشيطانة لا أحد يستطيع أن يصرفها أو يستعيذ منها كما يستعاذ من شياطين الجن.

ولكن لابد من طريقة لهذه المسكينة البائسة التى لايكاد ينفرج لها موضع حتى يلوح لها عائق، وأخذت تفكر طوال الليل وكادت دموعها تبلل الورقة التى تمسكها متشبثة بيدها وقد كتب فيها العنوان الذى ستتوجه إليه غداً، وعليها أن تكون هناك الساعة العاشرة حيث سيرسل لها ابن السيدة التى قدمت لها يد العون من سيساعدها ريثما تصل إلى مكتب الموظف المختص.

- ٥ -

قضت ليلة ممزوجة بالخوف والرجاء ، تدعو الله أن يسترها عن عين الشيطانة زوجة أخيها ، وأن توفق فيما تصبو إليه أحلامها البسيطة.

وما أطول ليل من به هم ، إن الدقائق تمر بطيئة متثاقلة ، والخوف يملؤها ، والرجاء أيضاً.

عندما سمعت آذان الفجر تسللت من حجرهما المظلمة وتوضأت وصلت وأطالت سجودها ودعائها ، وبعد أن قامت بما تقوم به كل صباح من إحضار الخبز والطعام ووضعته فى شرفة الشيطانة ، دخلت حجرهما وأخذت تتلو ما تحفظه من آيات القرآن والأدعية ، وكان من حسن حظها أن الشيطانة استعدت للخروج بعد التهام إفطارها لبيت والدها ، وهو وأن كان قريباً من المترل ، إلا أنه سيكون سبباً فى خروجها من المترل دون أن تراها.

وقد حدث ما كانت تتمناه، وخرجت تحمل طفلتها على صدرها، وعرضت عليها السيدة العجوز أن تدع طفلتها إلى حين رجوعها إلا أنها فضلت أن تأخذ طفلتها معها ، فقد تمنت أن ترى ابنتها النور والشمس وتستنشق هواء نظيفاً ولو لساعة .

بعد عناء وازدحام شوارع القاهرة ، وسألت كثيراً من المارة بعد أن أعطتهم الورقة المتضمنة عنوان الجهة الحكومية التى تقصدها،

وصلت ووجدت رجل قد أرسله المحامى ابن السيدة الفاضلة ينتظرها بجوار الموظف لمساعدتها ، وقامت بالإمضاء على الأوراق التى طلب منها الموظف المختص إمضائها عليه .. وجاهدت نفسها جهاداً عسيراً للتذكر كيف ترسم اسمها كما استحفظت منذ زمن .. كانت يدها ترتعش ، ويدها الأخرى تمسك بطفلتها التى أخذت تحملق فى الوجوه من حولها ، بعد أن أتمت كل هذا، غادرت مسرعة إلى المترل خشية رجوع الشيطانة زوجة أخيها قبلها، و هرولت مسرعة يحدوها الخوف والرجاء ، لكن الشيطانة كانت قد رجعت إلى المترل ، وعندما لم تجدها ،أرسلت إلى زوجها تخبره أن أخته قد هربت من المترل ، ولابد وأنها بغى ويجب التخلص منها، أخذت تبث فيه سمها كالأفعى،ووجدت أخاها ينتظرها أمام المترل، وما أن رأته ورأت الغضب والتجهم على وجهه ، أدركت أن أمرها قد انكشف للشيطانة وأرسلت له ، وأرادت أن تقول له الحقيقة ، وتطلب منه أن يدعها تدخل المترل ، فالنساء كثيرات فى شرفات منازلهن ينظرن إليها، وأرادت أن تستتر من الجيران والمارة، لكنه لم يعطها فرصة وباغتها بصفعة على وجهها فارتمت على الأرض وهى تحتضن رضيعتها التى راحت تصرخ فى هلع وخوف شديدين، وارتمت المسكينة على الأرض وسط نظرات الجيران والمارة ، وشعرت أن ما كان يتبقى لها من آدمية أو كرامة قد سقط معها على الأرض ، وأخذ أخوها يضربها ضرباً مبرحاً ، فالمخدر الذى يتعاطاه والحشيش الذى يستنشقه كل يوم جعل أعصابه مشدودة متصلبة، وكأنه وحش مفترس على الرغم من نحافة جسده ، وأخرج حزام بنطاله وأخذ فى

جلدها به وهى تزحف على الأرض متشبثة برضيعتها ، وتمنت أن يغيثها أحد ، لكن لا مغيث.

واستجمعت قواها وحملت رضيعتها، ودخلت المنزل تترنح على درجات السلم وهو يلاحقها ، ورأت ذلك كله السيدة العجوز ، ولكنها عاجزة عن فعل أى شئ ، لكن ابنتها عفاف لم تستطع الصمت ، كانت تعلم أن دخولها هذا المنزل هو دخول للجحيم بعينه، لكنها أسرعت لتنقذ المسكينة البائسة، وعندما صعدت لها فى الطابق الثانى وجدت الشيطانة قد أعطت سوطاً لأخيها الذى انهال عليها ضرباً ، وكانت المسكينة تصرخ صراخاً عالياً كلما وقع على جسدها الهزيل هذا السوط ، والرضيعة فقدت صوتها من كثرة البكاء والهلع ، ولم تجد دعوات عفاف وصراخها أن يكف عن هذا الضرب بصورة وحشية على جسد أخته المسكينة التى كانت تسمع كلاماً منه أشد بكثير من ضربها بالسوط ، واتهمها بالبغاء والفجور وخروجها بدون طوعه وأمره وأذنه ، وارتمت عليها تفاديها بظهرها ، ولم تسلم هى الأخرى من عدة ضربات على ظهرها، لكنها صمدت وعلمت أنها الطريقة الوحيدة لجعله يكف ، وأن يهدأ هذا الثور الهائج ولو لدقيقة،وهدأ الثور الجامح ، متوعداً أنه سيقتلها قبل أن يأتى عليها الليل إذا لم تخبره أين كانت ، ولماذا خرجت متسللة؟! وراحت تشرح صديقتها أين كانت ، وأخرجت المسكينة الورقة التى كان بها العنوان التى كانت مازالت تحتفظ بها فى صدرها ، وأخذها وخرج متوجهاً للتأكد من صحة ذلك الحديث ،وأخذت صديقتها تحتضنها تارة ، وتارة أخرى تحتضن الطفلة التى كادت أن تموت هلعاً وجزعاً ،لكن

الضربات الموجعة والسوط الذى ترك أثراً دامياً على جسدها ، وكلمات أخيها التى سحقتها وسحقت ما كان يتبقى من كرامتها قد فعل بها ما فعل من ألم وجحيم لا يحتمله بشر.

وأخذت المسكينة تتلوى على الأرض وهى تأن أنيناً ينفطر له القلب ، ولم يكن هناك قلب بجوارها سوى هذه العجوز وابنتها التى تجلس الآن معها ، والتى راحت تبلل قطعة من القماش وتضعها على ظهرها كي تلطف من شعورها بلهيب السياط التى فعلت بها ما فعلت من آلام وعذاب وجروح لا تندمل.

لم تمر ساعة ونصف حتى رجع أخوها يحمل فى يده الأوراق التى تقدمت بها للمكتب الحكومى للحصول على إعانة من الدولة تكفل لها شراء طعام ابنتها ، وما أن دخل حجرتها حتى فزع من فيها ، ووقف وأمسك بالأوراق وأخذ يمزقها قائلاً لها :

إذا خرجت يوماً من هذا المنزل دون علمى وأذنى ، سيكون آخر يوم لك ، أما هى فقد كانت تقول فى نفسها : "وهذا ما أتمناه، أن الموت أفضل بكثير من هذا الجحيم" ، وطال الوقت ، وصديقتها بجوارها ، لم يجدا كلاماً ولاحديثًا ، فلا معنى لأى شئ فى الوجود،وأى كلام لن ينصف هذه المخلوقة البائسة ،نظرت إلى صديقتها عفاف وقالت : لا أعرف كيف أشكرك أختى العزيزة ، ولا أعرف ماذا كان سيحدث لى ولتلك الطفلة اليتيمة لولا مجيئك ، أشعر أن الدنيا تحولت لغابة ولا يوجد آدميين بها سوى أنت وأمك، أبلغيها منى السلام ، وأنى أتوسل إليها أن تدعو لى الله ، أن لسانى عاجز عن أى شئ ،والآن عليك أن تذهبى ، أن الوقت قد تأخر ، ولابد أن والدتك قلقة عليك.

وربتت على كتفها وطلبت منها أن تهدأ وتحاول أن تستريح قليلاً، ولكنها كانت تعلم أنها لن نستطيع أن تذوق طعماً للراحة وأثار الضربات والجلد على جسدها ، ولكنها لم تجد لها قولاً غير ذلك ، وأخبرتها أنها ستزورها إذا ما جاء النهار ، وشكرتها بصوت منخفض ممزوج بأنين وألم ،وقضت ليلتها وهى تتوجع وتتألم وتئن ، وكثيراً ما كانت تنظر إلى ابنتها الرضيعة فى شفقة وخوف عليها من أيامها فى هذا المترل البائس وهذه الحجرة المظلمة ، والحيوانات المفترسة التى يعيشون معهم.

ـ٦ـ

لم يكن لها أنيس ولا أمل ولا راحة إلا فى الصلاة ، وهى لم تكن تحفظ كثيراً من آيات القرآن ، ولا تعرف دعاء مأثوراً ، ولكنها كانت تطيل السجود ، ودموعها تسبقها على حصيرها ، وتأخذ فى الدعاء أن ينقذها الله من هذه الآلام والمعاناة التى تذوقها كل لحظة ، وفى هذه الليلة وجدت عناء وجهداً كبيرين فى وضوئها وصلاتها، ولكنها استطاعت ذلك فى صبر رزقها الله به، وصلّت وسجدت وأطالت السجود والبكاء ،وشعرت أن كل جارحة وكل جسدها يسجد لله ، حتى أدركها النعاس وهى تصلى من شدة التعب وما رأته من بداية يومها ، وارتمت على حصيرها ، ورأت فى منامها نوراً يأتى من بعيد ، وتسللت إلى صدرها رائحة طيبة لم تعرفها فى حياتها ، وكأن الله أراد أن يرزقها بطمأنينة وسكينة ، فهى توسلت به ودعته وأطالت الدعاء ،واستيقظت مع سماعها آذان الفجر ، وشعرت أن الله لطف بها لطفاً عظيماً ، وأن النور الذى رأته هو ملائكة سيرسلها الله قريباً لها لكى تتخلص من معاناتها ، وما رأيت امرأة فى طيبتها ورقة قلبها ، بل أنها أرق من الطيور قلباً، والصبر على ما تراه من هذا الجحيم لابد وأن يتبعه فرجاً ، عاجلاً أم آجلاً ، وأن الجزاء الوحيد الذى تستحقه هو الفردوس الأعلى، فما تصبر عليه يعجز عن احتماله الرجال أولى العصبة والقوة.

وهذا النور الذى رأته هو دليل كافٍ لها على أن الله لن يتركها ، وما عليها إلا أن تنتظر هذه الملائكة التى سيرسلها الله لها.

مرت الأيام ، لا تتردد عليها بين الفينة والفينة سوى عفاف ابنة السيدة العجوز التى كانت تعطف عليها وتدس لها طعاماً تقيم بها صلبها ، وأهم من ذلك تحضر اللبن الجاف لرضيعتها وتعد لها ذلك كل يوم على وجه التقريب.

ولكن الرياح دائماً ما تظل تأتى بما لا تشتهيه السفن ، ولكن الريح هذه المرة شعرت أنها بوابة الدخول إلى جهنم ، وأن قواها قد خارت ، وصبرها كاد أن ينفد أو فعل ، وأنها لن تقوى على احتمال كل هذا ، ونظرت إلى السماء تسأل متى نصر الله؟!

وتمنت أن تسمع هاتفاً يرد عليها أن نصر الله قريب، فى إحدى الأيام دخل عليها أخيها وهو يسعل من دخان سيجارته المختلط بمخدر الحشيش ، وما أن رأته إلا وعرفت أن مكروهاً سيصيبها ، أن وجهه لا يأتى بخير أبداً ، فهو قد فقد إنسانيته وآدميته منذ أن تزوج بالشيطانة ،والتحق العمل مع حموه تاجر المواد المخدرة وصاحب الجسد البشع ،نظر إليها وكأنه سيلقى بياناً ثم يخرج :

جئت أخبرك أن الحاج متولى حماى العزيز قد طلب الزواج منك ، وأنا وافقت ، والخميس القادم هو يوم زفافك إليه ، ثم تركها وخرج، أما هى فوضعت يدها على جبينها ونظرت إلى ابنتها فى حجرها ، ولم تجد شيئاً لتقوله لنفسها ، ولم يدر فى مخيلتها سوى صورة الحاج متولى البشعة ، وحياته التى يقضيها فى تجارته المحرمة نهاراً ، وزجاجة الخمر

التى لا يدعها طوال الليل، وخارت قواها ، وتسلل إلى أحشائها ألماً جعلها لا تقوى على النهوض من على الأرض، ويبدو أن دموعها قد نضبت ، فتوقفت عيناها عن الدموع ، وتوقفت حياقما ، وكلما همت بالدعاء أن يخلصها الموت من كل هذه المعاناة والجحيم ، نظرت إلى رضيعتها وكأنها تسأل نفسها: وهذه المسكينة اليتيمة أين تذهب ومن يرعاها ؟ فتعدل عن هذا الدعاء .

وقصت على السيدة العجوز وابنتها ما حدث ، وراحت عفاف تصرخ وتقول :

"لابد من فعل شئ .."

ولكنها كانت تموت رعباً من أخيها وزوجته ، وطلبت منها ألا تفعل شيئاً ، وأن أى شئ ربما يعجل بقتلها وابنتها على يد أخيها وزوجته ، ولكن صديقتها عفاف قالت لها: "إنه لن يحدث لها أكثر مما حدث ، وعليها أن ترفض هذه الزيجة من هذا المسخ الذى يدعى الحاج متولى ."

ولكن لا حيلة لها ولا طريق ، وفكرت فى الهروب ولكنها لم تطمئن لهذه الفكرة ، فإذا لحق بها أخوها لقتلها فى الحال، وهى لا تخشى الموت أو القتل ، بل أنها تتمنى الموت كل يوم ، ولكنها تخشى من معاناة ابنتها اليتيمة التى لا تقل عنها حيلة.

تبقى ثلاثة أيام على يوم الزفاف، وبدأت الأوجاع والآلام تتسلل إلى جسدها كله ، وكانت تطيل السجود وتتمنى لو ترى رؤية مثل التى رأتها منذ أيام وسكبت فى قلبها طمأنينة ونور ، وانتظرت الغوث من السماء .

بعد أن صلت العصر ، وأسندت ظهرها إلى الحائط ، ونظرت لرضيعتها التى كانت تبتسم ، وأخذت ابنتها فى الابتسام وهى تنظر لأمها وكأنها تواسيها ، وحاولت جاهدة أن تبتسم لابنتها ، ولكن وجهها لم يعتد إلا على البكاء والدموع ، فلم تستطع إلا فتح ثغرها شيئاً يسيراً ،ثم سمعت زوجة أخيها تتحدث معه بصوت عالٍ ، وكان الحديث يدور عن عريس جديد غير الحاج متولى ، وقامت زوجته بنهره وسبه بأقبح السباب قائلة له :

"ما دام أبى قد أراد أن تكون هذه الحمقاء خادمة له فلا توجد قوة تستطيع أن توقف أوامره"

ورد عليها فى جمود:

" أنت لا تعرفين شيئاً ، أن الحاج متولى نفسه من بارك هذا الزواج الجديد ، بل طلب منى أن أنفذ كل ما يأمر به العريس الذى قدم من مكان لا نعرفه !"

وقالت له زوجته الشيطانة :

"لابد وأنك قد أسرفت فى تعاطيك هذا المخدر وأن كأساً من خمرٍ فاسد قد أطاح بعقلك الأحمق ، أن ما تقوله لا يعدو وأن يكون هذياناً لا معنى له"،لكنه أكد لها ما يقول ، وأن عليها أن تذهب إلى أبيها نفسه لتتأكد .

وهنا شعرت أن الموضوع على سبيل الجد لا الهذيان ، فسألته :

"وكيف حدث هذا أيها المتعوس ؟"

فأجابها: إن رجلاً قد قابله اليوم وطلب منه الزواج من أخته ، أما ما جعل الحاج متولى يوافق على هذه الزيجة هو أن العريس على معرفة وصداقة شديدة بالسيد رئيس مباحث القسم، الذى ما كاد يسمع اسمه حتى ارتعد الحاج متولى ، وكيف لا وهو يمثل الخطر الوحيد فى حياته ، وخشى إذا رفض هذا الطلب من غضب صديقه ، وصديقه الضابط يستطيع أن يضعه فى رأسه ، وأن يتفرغ له ويحدث مالا يتمناه الحاج متولى أو زوج ابنته

وما هى إلا لحظات ونظرت أمامها ووجدت أخاها يقف أمامها فى الحجرة

نظر إليها قائلاً:

"لقد تقدم إليك اليوم رجل غير الحاج متولى ، وقد وافقنا جميعاً عليه ، وسيأتى غداً بعد صلاة العصر لرؤيتك".

وخرج من الحجرة ، وخرج معه كثيراً من هذا الألم القابع فوق صدرها ، و شعرت أن الله قد أرسل إليها من ينقذها من براثن هذه الوحوش ، وسألت نفسها عن هذا الرجل الذى تقدم لها وهى لا تعرفه! وكيف هو عرفها ، ولكن كلمة واحدة جعلها تطمئن ، أنه على صداقة مع السيد الضابط رئيس مباحث القسم، إذن لابد وأنه ليس شيطاناً ولا وحشاً على الأقل ، وأن أى إنسان فى الوجود لن يكون أسوأ من الحاج متولى ثم نظرت لابنتها ووجدت نفسها تتسائل: ما مصير هذه الطفلة ؟ هل يوافق الزوج القادم من الغيب على أن تصطحب ابنتها معها ؟ وكيف إذا رفض ؟..إذن لن تتركها ،

ودارت أسئلة كثيرة فى رأسها لكنها شعرت بسكينة تتسلل إلى روحها وجسدها، وأن الله استجاب لدعائها وأنه لن يخذلها أبداً ، فى اليوم التالى زفت هذه البشرى إلى السيدة العجوز وابنتها اللتين فرحتا أشد الفرح لها متمنين لها أن ينقذها الله من هذه الحياة البائسة مع أخيها وزوجته.

وبعد صلاة العصر لم تجد المسكينة ماترتديه النسوة فى هذه المناسبات ، ولكنها ليست كأى أنثى ، فهى تحيا حياة بلا موت ، وعلى الرجل أن يقبلها على ما هى عليه من بؤس وشقاء ،ونادى عليها أخوها أن تخرج وتصافح العريس ، وضعت ابنتها وخرجت تجر أملها وتتوسل أن يكون الغيب قد احتفظ لها بشئ من النور وشئ من الراحة.

- ٧ -

تقدمت وهى تنظر كالتائهة ، ونظرت إليه ورفعت يدها الهذيلة جاهدة لمصافحته ، ووقف هو وصافحها ، وحينما نظرت إلى وجهه تعجبت كل العجب ، أنها لم تتخيل قط أن يكون هذا الشاب الذى يبدو عليه صغر السن والثراء والتقوى هو من تقدم لها ، كان فى العقد الثالث من عمره ، ووجه شديد البياض خالطه بعض الحمرة ، وكان نوراً يخرج من هذا الوجه ، حتى ظنت أنه ملاك وليس آدمياً ، وتشابكت يديها المرتعشتين ، ولم تجد كلاماً تقوله ولا هو ،ولكنها تذكرت ابنتها ولم تضع الفرصة فى سؤاله قائلة :هل يسمح سيدى بأن اصطحب ابنتى معى ، أتمنى أن تحقق لى هذه الأمنية برب محمد ...

وصلى هو على سيدنا محمد وابتسم :

ــ"فليكن ما تريدين" .

وعرفت هى لأول مرة منذ زمن ما معنى السعادة ، وذاق قلبها فرحة شعرت معها أنها تحلم ، وأرادت أن تسأله عما إذا كان هذا حلم أم حقيقة ؟ هل هو رجل أم ملاك تراه فى رؤية صالحة لا يراها إلا عبد صالح قد أنعم الله عليه بنعمة الرضا والقبول؟

والسؤال الذى كان يحيرها ويجعل أخوها وزوجته وحموه أكثر حيرة ، من أين هذا الرجل ؟ وكيف عرفها ...وأين رأها ؟

ولم يجرؤ أحداً على سؤاله ، خاصة بعد أن أجرى صديقه الضابط اتصالاً هاتفياً يطمئن عليه وعلى أمر زواجه أثناء تواجده عندهم ،

وما كان من أخيها وحموه إلا أن اشتد خوفهما ورعبهما ، وتوقفا فى هذه الأيام عن تجارتهم.

ثم غادر العريس بعد أن اتفق على يوم الزواج ، أما هى فقد هرولت إلى حجرتها واحتضنت ابنتها وأخذت تقبلها من فرط السعادة ، ووجدت نفسها تشتاق إلى السجود لله شاكرة ، فما كان لها أن تنسى ربها الذى يستجيب دعائها ، أوتنسى السجود الذى كان يفيض عليها طمأنينة وراحة تتسلل إلى روحها المجهدة وجسدها الهزيل ، وصلت المغرب وأطالت السجود ، ولكنه هذه المرة سجود شكر لله الخالق الودود اللطيف بعباده.

فى فجر اليوم التالى وفى طريق عودتها من المخبز ، ذهبت إلى السيدة العجوز لتزف إليها البُشرى ، وفرحت السيدة العجوز فرحاً شديداً متمنية لها أن تدوم فرحتها وسعادتها ، وجاءت ابنتها عفاف التى لم تكن أقل فرحاً من أمها بهذا الخبر السعيد ، وهن لا يكففن أبداً عن التعجب من كل ما يحدث، وكيف الله يمن على عباده المستضعفين ويجعلهم هم الوارثون .

وجاء يوم الزواج ، وجاء العريس ومعه المأذون بعد صلاة الظهر، ودخل عليها أخوها يسألها بصفته وكيلاً عنها ، ولم تجبه ، ولم تود محادثته ، وخرج أخوها يتمطى يزف خبر العروس التى وافقت على الزواج من هذا الرجل المحترم ، وكأنه أراد أن يحظى برضا العريس ، ويثبت له أنه نعم الأخ لأخته ، ولكن المأذون عاجله قائلاً:لا حاجة لوكالة فى هذا الزواج؛ لأنها ثيب ، وأنها ستزوج نفسها بنفسها ، وخرجت هى على استحياء ورددت ما أملاه عليها المأذون، وكانت

هناك دمعتان أرادتا أن تنحدران من عينيها فرحاً فى هذه اللحظة ، لحظة إحساسها أن لها زوج ورجل يحميها ويحسن معاملتها. ويخلصها من معانتها ، فلم تكن تتمنِ زوجاً كأى امرأة ، فقد كانت تتمنى الخلاص من معانتها ، زاهدة أو ناسية ما تبقى من الحياة من فرح أو سعادة أو متعة ، وقَبل العريس جبين العروس ، وتم الزواج ، وكانت معها صديقتها عفاف التى كانت تقف بجوارها ،وأشار العريس إليهما أن ثوب الزفاف وبعض لوازم الزينة موجوده فى هذه الأكياس بجوارهما ، وأخبرها أنه سيأتى بعد صلاة العشاء لأخذ عروسه ، وغادر هو المترل ، ودخلت هي وصديقتها الحجرة ، وبقيت زوجة أخيها تصدر فحيحاً كصوت الأفاعى ، غير مصدقة أن هذه البائسة التى كانت ومازالت خادمة تحت قدميها ، سوف تتزوج من هذا الشاب الثرى وتغادر الحجرة المظلمة إلى بيت يملؤه النور والسعادة .

وجاء العريس فى الميعاد ، وخرجت هى وصديقتها بجوارها تحمل طفلتها ، ودخلت السيارة الفارهة وجلست بجوار زوجها وهى غير مصدقة أن الحياة قد ابتسمت لها كل هذا الابتسام والرضا.

وصافحت صديقتها وأمها السيدة العجوز وشكرهما عن وقوفهما بجوارها، وأنها لن تنساهم وستتردد عليهم كثيراً ، وطلبت من زوجها أن يكتب عنوان المترل وأعطته لصديقتها التى تمنت منها التردد عليها وزيارتها .

وشقت السيارة عباب الشارع ، تاركة ورائها زوجة أخيها الشيطانة تكاد تميز من الغيظ ، وحجرة مظلمة ..

وهى فى الطريق أخذت تفكر فى كل ما يحدث لها ، كانت تحاول أن تفهم شيئاً أو تهتدى لتفسير لما يحدث ولكنها لم تجد، ووجدت أن

أفضل شئ أنها تترك نفسها لهذه الرياح الطيبة المحملة بأيام جديدة وآمال سعيدة تتحقق بقدرة رب الأرض والسماء .

وما أن دخلت المترل فى أحد شوارع مدينة نصر الهادئة ، ونظرت إلى بهو المترل المتسع ، وتلك النمارق المصفوفة ، والزهور المنثورة هنا وهناك ، شعرت أنها قد دخلت الجنة ، وتسربت هذه الفكرة تماماً إلى عقلها البسيط وفكرها البرئ ، إذن قد نفخ فى الصور ولكنها كانت ممن اختصهم الله برحمته ولم تصعق ، ولابد أن جزاء صبرها على ما رأته فى حياتها هو أن تدخل الجنة بغير حساب ، فالصابرون فقط هم من لا يقام لهم حساب ، وعلّام يحاسبوا وقد بشرهم الله بذلك ! فقد نجحوا فى الامتحان والابتلاء ورضوا بما قسمه الله لهم فى الحياة الدنيا ولم يسخطوا أو يعترضوا .

وجاءت خادمة وهمت أن تحمل عنها طفلتها، ولكنها نظرت فى حيرة وضمت ابنتها لصدرها ، وهنا قال زوجها :

لا تخشى عليها ، ستكون بأمان معها ، ستقوم على إطعامها وراحتها بالحجرة المخصصة لها ، واطمئنت ، وأخذت الخادمة الطفلة وغادرت بهو المترل ، وجلس هو بجوارها ينظر إليها فى صمت ، أما هى فقد كانت فى حالة عدم اتزان ، تلك الحالة التى تعقب الحزن الشديد ، وكان الإنسان يستيقظ من سبات عميق ، ولا يصدق ما كان يحدث له ، و لابد أنه حلماً مزعجاً كان يمزق النفس ويضنى الجسد ، ولكنها استيقظت من هذا كله ، وهاهى قد وجدت نفسها فى الجنة بغير حساب ، وساورها الشك أن الذى يجلس بجوارها ملاكاً أو جناً صالحاً ، وأنها دخلت قصراً مسحورًا ، وأمسك هو بكأسٍ

وجعلها ترتشف منه ، وأخذها إلى حجرته ، وكانت هى مستسلمة ومطمئنة ، فهى قد دخلت الجنة ، ولا يوجد فى الجنة ما يخشى منه ، بل الاطمئنان نفسه ، والسكينة بعينها ، والراحة الأبدية ، والخلد فى النعيم .

وأخذها هو بين أحضانه وضمّها إليه فى حنو .. ثم همس فى أذنيها أنه قد مضى زمن الشقاء والعذاب ، وأنه سيجعلها أسعد امرأة فى الدنيا ، وكلمة الدنيا جعلتها تفيق شيئاً فشيئًا .. و سألته :

"سيدى ..قل لى بالله عليك ..هل هذه الجنة ؟ أم ما كنت فيه قبل ذلك هو الحلم ؟ وهذه هى الحياة؟"

فضحك هو قائلاً :

نسأل الله أن يدخلنا الجنة برحمته وكرمه وإحسانه ،، أن هذا المترل أصبح جنة بدخولك أنت فيه .. وكونك أصبحت زوجتى ، وشعرت أن كلامه قد أَسكرَها حتى الثمالة ، وبدأَت تستعيد الإحساس بجوارحها رويداً رويداً ، وبدأت تتذكر أنها أنثى شأنها شأن النساء ...

وفى الحقيقة فقد كانت على قدر من الجمال الذى أرهقته الأيام العصيبة التى رأتها ، ورأها كأنها أجمل امرأة فى الدنيا ، وأصابه السكر والنشوى كما أصابتها هى ...

أما ما جعله يفيق من هذه النشوى وهذا العشق الذى ولد مبكراً.. هو ما رأه من أثر السياط والضرب على ظهرها ، وحاول هو إلا تشعر بدموع عينيه التى انسكبت فى حرقة ، وكان ذلك كافياً لمعرفة مدى ما رأته هذه المسكينة من عذاب ما لا يطيقه بشر ،

ولكنها ضبطت وجنتيه مبتلتين ، فطفقت تمسحهما بيديها فى رقة وحنان ، وسألته عن ذلك،ولكنه لم يشأ أن يخبرها لولا إصرارها على معرفة ما جعله يدمع فى هذه اللحظة وهو معها ..

وأخبرها بمدى حزنه العميق على ما رأته من عذاب وقهر ولكنها ابتسمت قائلة :

" أقسم لك أننى بعد جلوسى بين يديك نسيت كل ما رأيته من عذاب وهوان فى حياتى كأنه لم يحدث ، وأن كل تلك الأيام والليالى ما هى إلا يوم أو بعض يوم ."

وسألته السؤال الذى حيرها : متى رأها؟ وكيف حدث ذلك ؟

وأطرق هنيهة ثم أجاب :

"بالتأكيد أنك ما زلت تتذكرين اليوم الذى ذهبت فيه إلى المكتب لتقديم الطلب للحصول على مبلغٍ من المال وحدث ما حدث ."

وأجابته : "أجل ."

وأكمل هو :

لقد قصَّ لى الموظف الذى رجع أخوك واقتلع منه أوراقك التى تقدمت بها.. وكان يبدو عليه أنه غير سوى.. و حينما قصّ علىّ هذا الموظفَ وهو صديق لىّ ماحدث لك .. شعرت بأن قلبى ينفطر عليك بدون أن أراك .. ومن حسن الحظ وتوفيق الله أنه ظل تذكراً لعنوانك وبياناتك ، وحدث بعد ذلك ما تعرفينه ،

وارتمت هى بين أحضانه قائلة :

إن الله قد أرسلك لى كى تنقذنى من الغابة والوحوش التى عشت معها ما عشته من أيام حالكة الظلام .. وودت أن تقص عليه بعض تلك المعاناة ، لكنه وضع أطراف أصابعه على ثغرها ، وقال :

فالتنسى كل ما رأيتيه من عذاب ، ولا داع لتذكره الآن أو فى أى لحظة أخرى.. سأفعل ما فى وسعى كى تحيى حياة طيبة لا نصب فيها ولا ألم ..

كان آذان الفجر منبهاً لهما من هذه النشوى والسعادة التى انسكبت فى قلبهما وجسدهما ، وبعد أن أديا الصلاة ، واقترب منها وقبل يدها .

قالت له : لى أمنية حلمت بها كثيراً ...أود أن تكون ابنتى حافظة للقرآن الكريم .. فقد كان أنيسى فى وحشتى،ونُوراً فى ظلمتى.. ونذرت ذلك منذ ولادتها لسبب حينها لم أعرفه ... أود أن تهتم بها وتحقق لى هذه الأمنية.. و أن يكون ذلك قرباناً لله أتوسل إليه أن يقبله ...

فابتسم هو وقال :

فليكن ذلك بِمشيئة الله، وأعاهدك أن أرعاها كأنها ابنتى بحول الله وقوته .وأجلسها بين يديه ..وأكمل حديثه :

أحمد الله أنه رزقنى الزوجة الصالحة ، وامرأة ذات قلب طيب مثلك أعلم أنكِ عانيتِ في هذه الحياة.. ولكن كتاب الله كان الأنيس والنور والسكينَة التى تعيننا على نوائب الحياة ، وأى نائبة تهون وتصغر أمام الدعاء والتوسل إلى الله بآيات كتابه الكريم..وبآياته فى خلقه .

القطار



- ١ -

اليوم هو الاثنين ٩/ ٧ / ٢٠١٢ .. قررت السفر للقاهرة؛ لإنهاء بعض الأعمال المهمة و قبل شهر رمضان الكريم شهر العبادة والتقرب إلى الله ... لكن هذه المرة تختلف ،فلم يكن لديّ وقت لحجز تذكرة سفر .. أى أن السفر سيكون شاقاً فى القطار .. و لن أصطحب معى جهاز الحاسوب .. إذن سأنقطع عن أخبار العالم من حولى .. و الطامة الكبرى أننى اتصلت بالفندق الذى أرتاده دائماً، وهو غاية فى الراحة والخدمة الممتازة ويخصص لي

غرفة معينة فى الدور التاسع ، تتيح لى من شرفتها أن أجلس وأحتسى كوباً من الشاى قبل الغروب ثم أمارس الكتابة ، إذن هذه المرة ستكون متعبة جداً لى ... على أيّة حال .. فمهنة المحاماة علمتنى الصبر والجلد و تحمل المشقة الذهنية والبدنية.

عكفت هذه الليلة فى اختيار الكتب التى ستكون صديقة لى رحلتى .. فأجمل شئ فى السفر هو القراءة .. وأنا عادة أقرأ كتاباً فى الذهاب ومثله فى الإياب ، وكتابين آخرين فى الفندق .. و لما اكتنف هذا السفر وهذه الرحلة من غموض فقد وقع اختيارى على كتاب فى أدب الرحلات .. و أنا أعشق أدب الرحلات منذ أن عرفت أنيس منصور وقرأت له كل كتب الرحلات التى ألفها ... الكتاب بعنوان

رحلة كون ـ تيكى (٦ رجال وببغاء على طوف فى المحيط الهادى) للكاتب والمستكشف النيرويجى "ثور هايردال" .. والقصة جميلة جداً، تصف فكرة هذا الكاتب واعتقاده وإيمانه بأن الحضارات القديمة ربما تكون قد انتشرت نتيجة لرحلات بحرية قامت بها الشعوب البدائية عبر البحار والمحيطات .. ففى عام ١٩٤٧ أبحر "هايردال" مع طاقم يضم خمسة أفراد على ظهر طوف بدائى اسمه " كون ـ تيكى " من شاطئ بيرو الغربى إلى جزر بوليتريا فى البحر الجنوبى قاطعاً بذلك ٤٣٠٠ ميلاً فى قلب المحيط الهادى ؛ لإثبات أن أهل هذه الجزر قد انتقل أجدادهم إلى هناك قادمين من أمريكا الجنوبية على مثل هذه الأطواف البدائية كما تقول أساطيرهم...

وحقيقة أن الكتاب ممتع جداً وأستمتعت بقراءته كاملاً فى السفر ذهاباً إلى القاهرة ... والمسافة بينى وبين القاهرة بالقطار الفاخر السريع هى ٩ ساعات كاملة .. وأصطحبت معى كتبًا أخرى ولكن لم أستطع قراءها؛ لأسباب ستعرفوها أثناء قراءتكم للرحلة العجيبة ..

فى صباح اليوم التالى ، الثلاثاء وصلت إلى المدينة حيث المحكمة ومحطة القطار .. وكان يتبقى علىّ وقت قيام القطار ساعتان .. فذهبت إلى المحكمة وأهيت بعض الأعمال على عجالة وسألت زملائى عما إذا كنت أستطيع أن أقدم لهم خدمة فى القاهرة .بعد أن فرغت من ذلك كله وأثناء خروجى من باب المحكمة .. كانت هناك سيارة ترحيلات كبيرة تدخل وتسد الباب بالكامل .. وقفت السيارة وصافحنى الضابطان:واحد منهم يدعى صابر وهو ضابط مباحث بالمركز، والثانى النقيب خالد عبد الرحمن طابط نظام ورئيس نقطة

قريتى .. ودعوا لى بالوصول بسلامة الله ، وطلبـوا مـنى أن أبلـغ مصطفى بك يس تحياتى ، فهم يعلمون تماماً أننى سأقوم بزيارته .

بعد مصافحتى لهما .. ذهبت إلى محطة القطار.. و الأسئلة ازدحمت فى رأسى .. كيف أسافر وأركب القطار دون حصولى على تذكرة .. إذن سأضطر أن أقف طوال الرحلة .. وأجريت اتصالاً أخير بالفندق أكدوا لى أنه لا يوجد غرف خالية على الإطـلاق .. إذن سأصـل القاهرة ليلاً ولن أجد فندقاً يناسبنى إطلاقاً..وأنا أحمل أوراقاً مهمـة جداً ما العمل ... لا أعرف .. حتى جهاز الحاسوب لم أصطحبه معى .. كيف ذلك وأنا سأقف طيلة السفر ... و لا أعرف أين أبيـت فى القاهرة .. و ما أدراك ما القاهرة ، لا قريب ولا حبيب .... و لكن عشقى للسفر هون على كل ذلك ...

أخيراً وصل القطار ... و صعدت .. و لم أجد فعلاً مقعداً خالياً . بل وصل الحد إلى أنه من الصعب أن أجد مكان لأقف فيه!!!

بعد عناء طويل .. أمسكت بالكتاب الذى ذكرته منـذ قليـل ليكون أنيساً لى من ناحية ... ومن ناحية أخرى؛ ليكون حماية لي من الحملقة فى الآخرين دون قصد منى ..و وضعت حقيبتى وجاكيـت الحلة على الرف المخصص لذلك .. ووقفت فى طرقة عربة القطار.. الناس من كل صنف ولون..ومعتقد ... ماذا سيحدث فى القطار من أحاديث .. وماذا ينتظرنى فى القاهرة؟!

- ٢ -

كان القطار مزدحماً ازدحاماً شديداً .. أجمل ما فى السفر هو هذا الشعور بالقلق والتوتر .. يقول الفيلسوف الألمانى نيتشه: "عش فى خطر..والحياة فى خطر وقلق تخرج أفضل ما فيك ، أنها اختبار وامتحان مفاجئ لقواك وأحاسيسك ومشاعرك وجسدك..تجعلك تقيس وتعرف مدى تحملك وصبرك " وقفت فى ربع العربة الأول .. كان على المقعدين الذين أواجههما وأنا أقف أعطى ظهرى للناحية اليمنى من القطار ووجهتى للناحية الأخرى مقعدين متتالين:

الأول يجلس عليه رجل يشارف الخامسة والخمسين من عمره وبجواره ابنته .. و لا تستطيع أن تجزم ما إذا كان هذا الشيخ مبصراً أم ضريراً.. فعيناه تبدوان كفيفتين .. أما ملاحظته وحديثه يدل أنه مبصراً.. وهو رجل يبدو على سمته الطيبة الشديدة.. حينما جاء وقت الظهر قام وصلى فى طرقة العربة بجوارنا رغم الازدحام .. وبعد أن فرغ من صلاته جلس على مقعده ورفع كفيه وأخذ يدعو الله عز وجل لأهل سوريا متمنياً من الله أن يأخذ حاكمهم الفاسد أخذ عزيز مقتدر. ذكرتنى نبرته فى دعائه بدعاء الشيخ أحمد فرحات رحمه الله فى صلاة الفجر... ويبدو على الرجل رغم بساطة سمته وهندامه وثيابه هو ابنته التى تشارف الخامسة عشرة على ما يبدو .. أنه رجل معتدل ولديه ثقافة بسيطة تؤهله أن تستمع كلامه على أساس الحكمة من رجل طيب.. وأمامه مباشرة يجلس شاب وزوجته.. يبدو عليهما يسر

الحال .. يبدو على الزوج الشاب الطيبة على ملامح وجهه .. ويبدو على زوجته الاعتزاز الكامل بنفسها وحسبها ونسبها .. فهى تتحرى ألا تنتبه للأحداث التى تجرى فى عربة القطار أو تنظر لأحد .. كانت تحمل طفلة رضيعة ، وزوجها يحمل طفلاً صغيراً يبلغ الثالثة ربما أو مايزيد عن عدة أشهر..من وراء الشيخ يجلس رجلان: أحدهما: بجوار النافذة مجند فى الجيش .. و الآخر: رجل يبدو عليه أنه من أحد قرى الجنوب.. يرتدى جلباباً رمادياً صوف بياقة عريضه..جاحظ العينين.. و الأنف كبير مفلطح.. يبدو لك من أول وهلة أنه من سلالة الفراعنة، ولكن ليس من علية القوم .. وهو عصبى المزاج .. ولكنه يحمل طيبة أهل الجنوب .. أما من ورائى فكانت تجلس فتاة وجدها... أظن من أهل النوبة .. عرفت ذلك من لغتهم العجيبة التى لا يعرفها أحد سواهم ، والفتاة مهذبة وطيبة القول متفانية فى خدمة جدها الطاعنة فى السن..فتحت الكتاب الذى ذكرته فى البداية رحلة كون ــ تيكى (٦ رجال وببغاء على طوف فى المحيط الهادى)..

وفى الواقع أننى كنت فى عجلة من أمرى لأفتح الكتاب حتى لا أحملق فى الآخرين كما ذكرت آنفاً .. خاصة وأن العربة بها نساء مرضعات وفتيات .. وأنقذنى الكتاب والكاتب من هذا كله .. فقد كان يبدو على السيدة الشابة التى تجلس بجوار زوجها وعلى حجرها رضيعتها الضجر والضيق الشديد من الازدحام .. وأن حريتها مقيدة، وأردت أن أعطيها حريتها .. يبدو أن الحرية قاسم مشترك الآن .. تعودنا عليها ونود أن نبدأ بأنفسنا قبل أن نطالب الآخرين بها..

وفتحت الكتاب وقرأت مقدمته الممتعة.. و كانت تتحدث فى عناء الكاتب والمستكشف فى تجهيز الطوف الذى سيبحر به فى المحيط الهادى !! وظننت أنى لا أقل منه عناء فى سفرى هذا .. فلم تمر ساعة

حتى شعرت بألم فى قدمى غير محتمل .. فما بالى بالساعات الطويلة المتبقية !!

كان القلق الممزوج بتوتر يصاحبنى أنا و أولئك من أمثالى الذين قطعوا تذاكرهم داخل القطار بالإضافة للغرامة ومع ذلك يقفون ولا يجدون لهم مقعداً .. و هذا ليس ذنب أحد، أنه ذنبنا نحن الذين فضلنا أن نصل القاهرة كما يحلو لنا ، ويتفق مع مصالحنا، فما ذنب السكة الحديد ؟ أن توفير عربات كافية أو قطارات سيدخلنا فى متاهات سياسية شائكة نحن فى غنى عنها فى سفرنا ومغامراتنا الدائمة ..

لم يقطع هذا الهدوء سوى بائع شاى متنقل .. دخل فى إحدى محطات مراكز سوهاج ، الرجل سمين جداً وقصير ، يخيل إليك أنه كرة تتدحرج فى العربة ..يمسك فى إحدى يديه براد شاى كبير من الماء المغلى واليد الأخرى أكوابًا بلاستيك مرصوصة داخل بعضها البعض بعناية ... صوته أجش خشن .. يتصبب العرق منه صباً .. وحينما دخل عربة القطار انحشر جسده فى طرقة العربة.. وسار جاهداً لكى يواصل مناداته لسلعته... وحينما اقترب منى نظر لى بوجه متجهم ومقطب الجبين وسألنى فى غضب أن انزاح من طريقه وادعه يمر ..

وسألته ماذا أفعل .. وفى حقيقة الأمر فأنى تذكرت المبدأ والقاعدة الفرنسية التى كانت من نتاج ثورتها-**Le laissez fairelaisser passer** دعه يعمل دعه يمر... ووجدت نفسى متسائلاً ... هل أنا مناهض للثورات؟ .هل أنا اشتراكياً أقف ضد حريات الرأسماليين ؟ .. و رجعت فى كلامى وتفكيرى .. فهو إنسان بسيط يسعي علي رزقه ، وجل ما يصبو إليه وحلمه فى الحياة هو أن يفرغ من بيع هذا الأكواب البلاستيك ويبع كل ما لديه من شاى ،

ولا أنا رأسماليا من أصحاب الياقات البيضاء أو اشتراكياً أو إقطاعياً تم تأميم ممتلكات أجدادى فى عهد عبد الناصر!.. وضحكت فى نفسى لتخيلى هذا كثيراً.. والركاب بجوارى أخذوا منى مهنتى .. فقد سكت أنا ودافعوا هم عنى .. وصبوا لعناتهم عليه قائلين له أنه هو المخطأ .. فهناك خدمة داخل القطار وأنه لا يحق لأحد اقتحام القطار بهذه الصورة وعرض السلع الرخيصة هذه..

دخل الرجل وخرج دونما يشترى أحد منه كوباً واحداً من الشاي.. و شعرت أنا بالذنب ، دون سبب .

خرج الرجل ودخل بعض الركاب يبحثون عن مقاعد خالية.. والغريب جداً أنهم لم ينتبهوا أن هناك من يقف فى طرقات العربة.. إذن فلا مكان لهم! إذن علام البحث و التنقيب.؟!.. لا أعرف.. ربما هى طبيعة بشرية..فطبيعتنا البشرية مليئة بالأشياء الغريبة وبالنتائج المتناقضة مع المقدمات..تحرك القطار وانحشر فى العربة منهم البعض..والبعض الآخر أخذ يسعى بين العربات عله يعثر على مقعد.. أخذت فى القراءة بعمق علها تنسينى الألم غير المحتمل فى قدمى من الوقوف.. وفى الواقع نجحت فى ذلك نجاحاً كبيراً.. فالكاتب بارع فى وصف كل شئ. فقد وصلت للفصل الثالث حيث وصل إلى أمريكا الجنوبية .. الأكوادور للبحث عن شجرة البلزا هذه التى استخدمها القدماء فى صناعة الطوف ، وقارنت بين بحثه المرهق لهذه النوعية من الخشب النادر وبين بحثنا فى القطار وتطلعنا لمقعد خالٍ يريح أقدامناوأجسادنا.

لم يقطع استغراقى سوى بكاء الرضيعة التى تنام على حجر والدها التى تجلس أمامى هى وزوجها .. وشعرت أنا بإحراج .. فهى تريد أن ترضع ابنتها .. والقطار به الكثيرون .. لكنها أسدلت حجابها حتى

غطت وجه رضيعتها، وأرضعت ابنتها .. وحمدت الله على نعمة ثور "هايردال" هذا المؤلف الذى جعلنى أستغرق فى القراءة ولا أتسبب فى إحراجها هى أو غيرها ...

فجأه ينتفض الزوج بجوارها ويقف وينظر لأعلى قائلاً أن اللبن يأتى من أعلى !! إذن سقف القطار يمطر لبناً !! ونظرت أنا مسرعاً ووجدت بالفعل أن اللبن يسقط بغزارة..ولملمت كتابى فى يدي.. لكي أشارك دون قصد منى فى البحث وراء ما يحدث... وبسرعة وربما طول قامتى ساعدنى فى ذلك قليلاً أن أكتشف ما يحدث، وجدت أن هناك كيساً كبيراً يخرج منه هذا اللبن !! وبسرعة سحب الزوج هذا الكيس ..وكان ثقيلاً ممتلئاً... والحقيقة فأن أحداً لم يتعرف على صاحبه.. و فجأه استيقظ الشيخ الكفيف قائلاً أنه لى أنا.. و هنا شعرت أنا بالقلق الشديد .. فالشيخ الطيب ربما سيسمع كلاماً من الزوج أو من أحد الركاب يحرجه .. ولكن الزوج كان مهذباً فلم يتكلم.. ساعدناه جميعاً فى وضع هذا الكيس الممتلئ بقوارير اللبن أسفل مقعده ... ثم ساد الصمت مرة أخرى، والحقيقة أن الشيخ الطيب الضرير شعر بإحراج شديد ... تذكرت المثل الشعبى..."العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة" ..، الرجل لم يلمه أحد .. و بعد هنيهة أجرى اتصالاً بمن كان سبب فى ذلك .. و قص عليه ما حدث من إزعاج للركاب .. حقيقة تعاطفنا جميعاً مع الشيخ الطيب، ومر الموقف على خير.

طوال هذه الساعات كنت أشعر بألم شديد ومتعة أشد لقراءة الكتاب الممتع وأبحرت مع الكاتب والكتابً فى أعماق المحيط الهادى..هل سيصل إلى جزر "بولينيزيا" فى الجنوب على بعد ٤٣٠٠ ميلاً فى قلب المحيط الهادى ؟!

كانت الأحداث تمر طبيعية فى العربة حتى دخل شاب وسيم ملتحى.. و وقف على مقربة منى .. بل كاد أن يكون فى مواجهتى تماماً.. و يبدو على سمته الثقافة والعلم ومن هندامه أنه ميسور الحال... أخذت أنا أكمل رحلتى مع الكتاب .. وأخرج هو كيس صغير من الحلوى وأعطى واحدة لى .. رفضت فى أدب وذوق عدة مرات ولكنه ألح .. و لم أجد بداً من ذلك .. فى الواقع كنت أعرف أن هذا هو فتح باب للنقاش والحديث .. و أنا لا أريد أن أسهب فى نقاش داخل القطار حتى لا يترعج أحد أو أكون مصدراً لضيق لأحد منى .. لكنه تحدث معى ... و دار نقاش بصوت منخفض عن السياسة وبطبيعة الحال عن الأوضاع الراهنة ..و ودت بطريقة غير مباشرة أن أعرف انتمائه السياسى كى أحدد طبيعة ومدى النقاش معه .. ووجدته لا ينتمى لأى تيار دينى أو سياسى .. أنه صحفى فى جريدة اليوم السابع .. أما اللحية فهذه ليست دليلاً على انتمائه لأحد .. و أعجبت بثقافته وأدبه الجم فى الحديث.. لكن الرجل الذى تحدثت عنه فى البداية والذى كان يجلس وراء الشيخ الضرير صاحب الجلباب الصوف والأنف المنبعج دخل فى الحوار ، كيف لا أعرف ، على الرغم أننا كنا نهمس همساً .. وهذا الرجل يبدو عليه أنه من أولئك المتشدقين المناهضين للثورة ولكل شئ فى مصر.. وعلا صوته فى النقاش بدون سبب..ثم أشار بالسبابة لأعلى ونظر بعينيه الجاحظتين إلى سقف العربة وثبتت عيناه على ذلك للحظات فى قالب مضحك جداً... وعرفنا أنه خريج إحدى كليات الأزهر من قرابة ٢٠ عاماً.. و تارة أخرى يقول أنه مدرس وتارة يقول أن الدولة لم تكفل له عمل.. ازدادت حيرتنا فيه .. فقد كان صوته جهورياً جداً مما تسبب فى إزعاج باقى الركاب، خاصة الزوجة وزوجها الجالسين أمامى .. فقد خرج الزوج من شرنقة أدبه وطيبة ملامحه وسب ولعن هذا

النقاش وهذا الشاب الملتحى بألفاظ ليست مهذبة .. و الواقع هذا ما كنت أخشاه .. وأبتعدت عنهم مسافة مترين لكى لا تلاحقنى هذه اللعنات .. وأنا لست فى حاجة لها.. فيكفينى ألم قدمى غير المحتمل بالمرة..وأن أى لعنة أخرى ربما تجعلنى مغشياً علىّ..احتدم النقاش بينهما..الرجل الأزهرى يسب ويلعن فى الرئيس.. زاد إعجاب البعض بالشاب الصحفى إعجاباً شديداً .. ليس لرده وقوة إقناعه وثقافته .. بل على رباطة جأشه وتمتعه بقدر كبير من الدبلوماسية التى يفتقدها كثير جداً من الشعب المصرى خاصة الذين يدّعون الثقافة والفهم !!..فقد كان الرجل يتحدث بصوت عالٍ جداً.. و على الرغم من ذلك استطاع الشاب أن يمتص غضبه.. وأن يحيل نظرة الانتصار التى صاحبت نظرات الكثيرين المتعاطفين مع ابن الجنوب ضد الصحفى الملتحى ... و الرجل الشيخ الضرير دخل فى الحوار ودافع عن الثورة المصرية وعن الثوار دفاعاً مستميتاً موضحاً فساد النظام السابق بالتفصيل، وعن ارتباط بقايا النظام القديم بمصالح مباشرة فى إثارة الفتنة وتشويه الثورة..

الشاب استطاع أن يأخذ الكرة فى ملعبه .. فقد انبهر به البسطاء والعامة والمثقفين أيضاً من براعته فى دفاعه عن الثورة المصرية والنظام الجديد...بعد أن انتهى هذا الشاب من هذه المعركة حامية الوطيس..

بعد ذلك كان القطار قد شارف الوصول القاهرة...وأنا أعشق القاهرة عشق الأم لوليدها .. وعشق الثائر للحرية ...ولا يكاد يمضى شهر وأزورها..وكلما اقترب القطار من الوصول اقتربت فرحتى بنزولى القاهرة.. و قتربت حيرتى من امرئ ومن أمر الفندق .. فليس هناك حجز..ومن المفارقات أن القطار بدأ فى دخول محطة مصر .. رمسيس..وفى نفس الوقت وصل المؤلف والمستكشف "ثور هايردال"

إلى مبتغاه .. فقد وصل إلى جزيرة "بولينيزيا" فى نفس المدة التى توقعها ٩٧ يوماً واستقبله أهل الجزيرة بترحاب وجاء الرئيس وكان اسمه "تبيورا ــ يارى نرى ــ فاتاو" وكان الوحيد الذى يتحدث الفرنسية ويعرف الكتابة فى الجزر الجنوبية لكونه عاش فى جزيرة تاهيتى..ونزلت من القطار فى رمسيس ولم أتعشم أن يستقبلنى أهل القاهرة كما تم استقبال الرحالة المستكشف .. فلا أنا رحالة مثله ولا مستكشف .. و لا يوجد فى القاهرة من يعرف بوصولى إليها ولا يهم أحد مجيئى إليها من عدمه.

كان الرصيف غاية فى الازدحام..البعض كان أقرباؤه فى انتظاره على الرصيف... أما أنا فلا أحد معى سوى الله..وكفى به وكيلاً....ومعى حقيبتى وكتابى..وأحلامى.

- ٣ -

كانت الساعة اقتربت من الساعة الثامنة ليلاً.. الكل يتأهب للخروج محملاً بحقائبه فى عجالة ومحملاً بأحلامه وأمانيه .. البعض عائد للقاهرة لبلده ومدينته .. فرحاً لعودته من الجنوب حيث درجة الحرارة العالية والأحداث الأكثر اشتعالاً .. فالجنوب معظمه أصبح مرتعاً لتصفية حسابات قبلية وثأر.. فلا تمر الساعة حتى تسمع إطلاق نار كثيف وأسلحة ثقيلة من كل نوع .. و لا تخلو الأحداث اليومية من قتيل وأكثر!! البعض الآخر وصل للقاهرة زائراً لفترة يقضى فيها مصالحه وأعماله ويعود بعد أيام..

أغلب من كان بجوارى أجرى عدة اتصالات بأقربائه أو أصدقائه الذين ينتظرونه على رصيف المحطة..

وأنا دائماً أحب أن أكون فى سفرى وحيداً مثل أفكارى وأحلامى، ألا ينتظرنى أحد أو يعلم بوصولى ... أحب أن أكون وحيداً فى الفندق لا قيد على تحركاتى أو وقت نومى ، وأنا قليل النوم منذ زمن بعيد ، أعشق السهر حتى يقترب الصباح ... والحياة فى الفندق توفر لى كل هذا ..

لكن المشكلة الكبرى هى أننى لم أعرف وجهتى بالتحديد.. كل من نزل من القطار يعرف وجهته إلا أنا .. والفندق لا يوجد به غرف..

تعلمت من الحياة أن أفضل شئ للعبور من المشكلة هى مواجهتها فى أقرب وقت دون تردد .. أن أقتحمها قبل أن تنهك قواى وأعصابى..

لذلك فقد قررت أن أتوجه إلى فندق قديم .. هذا الفندق كنت أرتاده أول أسفارى للقاهرة ، ولم ألبث أن عرفت الفندق الجديد المريح المناسب الذى أنزل فيه دائماً مرة أو مرتين فى الشهر.. والفندق القديم هذا لا يصلح للاستخدام الآدمى إطلاقاً ، يقع فى أول شارع "كلود بك" ما أن يقع نظرك عليه إلا وشعرت أنه يجاهد الأيام جهاداً كى لا يسقط..وكيف للسلطات أن تدع مثل هذا المبنى المتهالك الضخم فى مدخل شارع مهم فى ميدان رمسيس!

لا يوجد فى الفندق أى نوع من أنواع التهوية .. الفراش والغطاء هو من ذلك النوع الذى يستخدمونه فى معسكرات الجيش للمجندين كنوع من أنواع التقشف .. و كان الفندق يقول لزواره أنهم هنا فى معسكر تدريب فى إحدى ثكنات الجيش الألمانى ، وهو اختبار لقدرة وتحمل المصريين لقسوة الحياة ومواجهة الحروب فى أى وقت...

الإضاءة خافتة .. و به تجد جميع أصناف البشر .. رجالًا ونساء ثيبات وأبكاراً!

المبنى من المبانى القديمة العالية ذات الأبواب ونوافذه الضخمة جداً مصنوعة من الخشب العتيق .. و لا يوجد به عمال نظافة أو خدمة توصيل المشروبات والمأكولات للغرف.

وقرارى هذا بالتوجه إلى هذا الفندق قرار فى الحقيقة صعب جداً ولا يطيقه أحد .. ليس لكونه غير صالح للاستخدام الآدمى فحسب ولكن لارتباطه بذكرى أليمة جداً لى ...

ففى إحدى المرات التى كنت ارتاد هذا الفندق منذ زمن ..كانت الساعة الثانية صباحاً، الهدوء والسكون يلف المبنى بالكامل كأنه بيت أشباح .. وبعد أن رتبت أوراقى .. شعرت بالنعاس من إرهاق السفر ووعثائه ... و حمدت الله على ذلك كثيراً .. فأنا أتوسل للنوم وأطلبه حثيثاً فى هذا الميعاد ولا أجده .... لم تمر دقائق وبعد أن رحت فى سبات عميق.. إذا بى أسمع طرقاً شديداً على باب الغرفة !!! والباب كما ذكرت ضخم جداً .. لكى تطرقه بهذه القوة وتحدث هذا الصوت العالى يتوجب قوة ، وأمراًجللاً قد حدث!

نهضت من نومى فَزعاً ... الطارق لا يكف عن طرقه المتتالى السريع أبداً .. فتحت الباب لأجد أمين شرطة بزى ميرى ويحمل سلاحاً ويسألنى.. هل أنت فلان ؟ جاوبته نعم! وبادرنى قائلاً: "هيا بنا للقسم... للقسم ! لماذا..؟"..جاوبنى أن هناك سأعرف..

أصبت بالذهول... ماذا يحدث ..وكيف..ولم ؟

أننى لا أعرف أى سبب لذلك .. فأنا لا توجد قضايا مرفوعة ضدى من أحد ... وليست معى مشكلة مع أى طرف ...

ثم أننى محام .. أعرف جيداً ما يحدث من إجراءات .. وعملى معظمه فى ديوان المركز، وتربطنى بضباطه علاقة عمل واحترام متبادل ... إذن كيف يحدث هذا ؟.. لا أعرف ، حتى القضايا التى ترافعت فيها وكانت أمن الدولة طرف فيها انتهت ولا توجد بها مشاكل مع أحد !!

أمين الشرطة الذى اقتادنى كان مهذباً جداً وعاملنى بذوق وأدب ، وقدر واحترم مهنتى وأعطانى الوقت كى أرتدى ملابس

الخروج .. ثم طلب منى أن آخذ حقيبتى وكل أغراضى معى !! وهنا بدأ القلق والتوتر يتسلل أكثر فأكثر، إذا الأمر خطير، وهو يعلم أننى لن أرجع مرة ثانية للفندق .. و لكنى طلبت منه أن أدع أغراضى فى غرفتى فوافق..

فى الأسفل وفى صالة الاستقبال كان صاحب الفندق ينتظر أمين الشرطة فى اصطحابى بهدوء .. أوقفنى وسألنى لماذا لم آخذ حقيبتى ؟ وأخبرته أن الأمر إن شاء الله لا يحتاج ذلك وما هى إلا دقائق وسأعود للفندق ..

نظر لى باستغراب وحيرة شديدين .. و كأنه يقول أن من يأخذونه فى هذا الوقت من الفندق لا يعود ...

خرج أمين الشرطة وهو يقتادنى للسيارة وكأننى أحد المجرمين الخطرين جداً .. ثم تقدم لكابينة السيارة حيث يوجد بها ضابط مباحث .. أعطاه التحية العسكرية وأخبره أنه تم إلقاء القبض على المتهم المطلوب !!

ركبت السيارة من الخلف وركب بجوارى أمين الشرطة وتحركت السيارة تشق طريقها لقسم الأزبكية..

ولأول مرة فى حياتى أشعر بهذا الشعور... أنه مزيج من الخوف والقلق .. وما كان يخيفنى حقيقة هو أن يتعدى أحد على كرامتى أكثر من ذلك الذى يحدث .. ونحن أهل الجنوب خاصة نعتز جميعاً كباقى المصريين بكرامتنا وأكثر .. و أن أى محاولة للإهانة سنرد عليها ولو كلفنا ذلك حياتنا.

أعطانى الله الصبر والثبات ورباطة الجأش... وصلت سيارة الشرطة إلى قسم الأزبكية .. والقسم كان هادئاً فى مدخله فى هذه الساعة من الفجر .. كان هناك مجندون وعساكر يمسكون بأسلحتهم، وعددهم كبير... وعلى الرغم أننى كنت بعيداً عن السياسة و معرفتى بـــ"تشى جيفارا" تماماً مثل معرفة بائع الشاى المتنقل الذى قابلته فى القطار بفكرة العقد الاجتماعى **contrat social** لجان جاك روسو ولم أكن أقرأ عن الثورات بنفس المفهوم الآن .. ومعظم الكتب التى قرأها عبارة عن أدب إنجليزى وفلسفة وعن حقوق الإنسان

إذن لماذا يحدث معى كل هذه الأحداث الغريبة.؟

لكن هناك طمأنينة أودعها الله فى صدرى كى أتعامل مع الحدث بعقلانية وصبر ..

صعدنا إلى الطابق الثانى حيث وحدة تنفيذ الأحكام !!

كانت الغرفة واسعة بها ضابط مباحث وبها أمين شرطة "بلوكامين تنفيذ الأحكام" والضابط كان مهذباً بعض الشئ أما أمين الشرطة فكان مثالاً لشرطة المخلوع سيئة الأخلاق والسمعة ... الغرفة سيئة الإضاءة والطلاء يميل إلى اللون الرمادى القريب للسواد .. والمصابيح صغيرة صفراء تفزع القلب تشعرك بأنك انقطعت عن الحياة .. و دخلت عالم آخر.

توجهت لضابط المباحث وعرفته بنفسى قائلاً له :

أننى لا أعرف سبباً واحداً يحيلنى من محام أدافع عن المتهمين إلى متهم !! وجاوبنى مسرعاً أنه توجد عدة قضايا مرفوعة ضدى !!

و بادرته قائلاً:

إن هذا مستحيل، ولا توجد ضدى أى قضية.. و أنا متأكد من ذلك تماماً وأن لبساً فى الموضوع قد وقع ...

وجادلته كثيراً وجادلنى دون جدوى ..

وأخبرنا أمين الشرطة بنبرة حادة وصوت مرتفع وبألفاظ فظة ألا نستخدم الهاتف .. ولكنى استخدمته .. فقد اتصلت بصديق لكى يأتى ويزيل اللبس فى الموضوع .. لكن للأسف صديقى هذا من النوع الذى يأخذه النوم إلى سبات عميق لايشعر إذا استيقظ ونام مرة أخرى ماذا حدث .. وهنا ثار أمين الشرطة ووقف وانتفض من مقعده واقترب منى وهددنى أننى لو فعلتها مرة ثانية سيكون هناك عقاباً شديداً .. و لم أُذعن لتهديده .. وحاولت أن أكلم صديقى هذا مرة أخرى ، ألا أن نفس الموضوع قد تكرر ، لم يفهم ما أقوله ، فهو يحدثنى وهو نائم ! قام أمين الشرطة وفى هذه المرة تحوّل إلى وحش .. فقد هرول إلى هرولة مفزعة ووقف فى مواجهتى تماماً مؤنباً إياى أنه سبق ونبه على بعدم تكرار هذا ، كان كل شئ فى جسده ينتفض ويرتعش من شدة توتر أعصابه .. يخيل إليك أنه لاعب كرة يتحدث بأعصاب مشدودة مع غريمه ... و تأهبت لأن أرد عليه إذا ما تطاول أكثر من ذلك.. على الرغم أننى كنت متأكد أنه لن يتورع من استخدام سلاحه فى قتلى إذا ما نشبت معركة معه.. لكنه ظل يخرج أنفاساً بصوتٍ عالٍ كأنه فحيح أفعى ....

مرت تلك اللحظة على خير.. .ورجع هو وتقهقر للوراء ثم جلس على مقعدة مرة أخرى .

الغريب أنه كان مسيطر على الغرفة ومن فيها أكثر من ضابط المباحث نفسه!! لسبب لا أعرفه...

توجهت إلى الضابط مرة أخرى وطلبت منه أن يطلق سراحى وأننى سأتخذ إجراءا قانوياً مالم أخرج وعلى الفور ... الضابط أمسك كارنيه النقابة ووضعه على رأسه قائلاً : إن هذا على عينى ورأسى .. ولكن الحل ليس فى يدى .. إن الحل فى يد رئيس مباحث القسم.

وبادرته سائلاً وأين هو.؟

قال لى: "إنه على وصول ."

عاد الأمل مرة أخرى يتسلل إلى صدرى .. وأستطعت أن أتنفس بهدوء...

لا أعرف كم بالضبط من الوقت قد مضى ... وفيما فكرت؟ وتركت الموضوع كله لله المنتقم ..المعز المذل.. داعياً الله أن يخلصنا من هذا الديكتاتور وزبنايته .. وكان ضابط المباحث قرأ ما كنت أقوله فى نفسى ... حيث توجه بحديثه إلى باقى المقبوض عليهم قائلاً فى تهكم : ما دام حسنى مبارك رئيس إن شاء الله خير !!

قالها فى استهزاء وسخرية وعجرفة.

أخيراً وصل رئيس المباحث وأجرى معه اتصالاً هاتفياً سرد فيه عن حصاد الليلة وأحداثها ... و قبل أن ينهى الحديث معه أخبره عنى

قائلاً : إن أحد المقبوض عليهم محام واسمه متشابه مع اسم متهم من نفس مدينته ونفس الاسم الثلاثى ... ثم سمعته يقول منهياً حديثه بعدما تلقى الإجابة : تمام يا فندم...

نظر لى مسرعاً ومعطياً لي الكارنيه : تفضل... وهنا بدأت أشعر بنفسى قد ردت إلى ... خرجت لأجد نور الصباح يتسلل إلى الدنيا ويتسلل فى نفسى نسيمه النقى...

كل هذه الذكريات عبرت أمام عينى وأنا خارج من محطة رمسيس متوجهاً لهذا الفندق المسحور.. أنه بيت أشباح وليس فندقاً على ما يبدو .. مرّ على هذا الحدث ٧ سنوات تقريباً من وقتها زادت معرفتى بالقاهرة شيئاً فشيئاً حتى عرفت الفندق الأخير الفاخر.

حينما وصلت وجدت الفندق القديم لم يتغير فيه شيئاً قيد أنملة ..

سألت صاحب الفندق عن غرفة ، فأجابنى أنه لا توجد غرف خالية إطلاقاً!

حتى الفندق المسحور القديم الذى لا يصلح لشئ فى الدنيا لم أجد به غرفة!

إذن ما العمل؟ وعلى نفس ما تعلمته فى الحياة فعلت أيضاً هذا المرة، أن أحاول البحث عن مخرج مهما كلف الأمر .. كنت أشعر بألم غير محتمل فى قدمى وساقى وبدأ الإرهاق يتمكن منى أيما تمكن ... و فكرت أن أتوجه إلى الفندق الذى أرتاده كل مرة وأحاول أن أجد غرفة به ... وبالفعل توجهت إلى هناك وأستقبلنى حارس المبنى بترحاب شديد ...و أعتليت المصعد إلى الدور ٧ حيث إدارة الفندق

.. تقدمت إلى موظف الاستقبال .. كنت أتمنى أن يكون نفس الشخص الذى يستقبلنى كل مرة .. أننى أغدق عليه بالأموال .. وهو يرد هذا بخدمة ممتازة وتوفير سبل الراحة ... ولكن للأسف لم يكن هو .. بل موظف آخر ... قبل أن ألقى عليه السلام سبقنى عدة أشخاص تحدثوا فى وقت واحد سائلين عن غرف بالفندق فأجابهم بأنه لا يوجد غرف خالية إطلاقاً، وبالرغم من هذا الضيق .. وهذا العناء والتعب .. وبالرغم من سماعى إجابته بالسلب إلا أننى ظللت واقفاً

توجهت إليه بالسؤال رغم توقعى إجاباته وأجابنى نفس الجواب ل:"لا يوجد"

ولكنى لم أغادر طاولته أبداً .. ظللت واقفاً أمامه لبرهة ... قلت له أننى نزيل دائم فى هذا الفندق ، وليس لى مكان آخر أعرفه فى القاهرة، وأشعر بتعب شديد ولا أقوى على البحث فى المدينة مترامية الأطراف عن مكان آخر ... نظر لى وراجع أوراقه ثم قال أن هناك أحد الأشخاص حجز غرفة ومرت ساعتان ولم يأت ، ويبدو أنه لن يأتى ومن الممكن أن أحجزها لك .. وكافئته بمبلغ كبير من المال جزاء موقفه هذا ... أخيراً سأرتاح وألقى بجسدى على فراش وترتاح قدماى من الوقوف طيلة اليوم فى القطار ...

ماهى إلا لحظات وكان العامل يأخذ حقيبتى وأغراضى إلى الغرفة ٩٠ .حينما دخلتها خيل إلىّ أننى دخلت فندق على سبيل الخطأ !! إن هذه الغرفة لا تشبه باقى الغرف.. يبدو أن المهندس الذى صمم هذا المبنى الشاهق قد أخطأ فى رسوماته ... ووجد مترين أو ينقص على المترين عرضاً وحوالى مترين ونصف طولاً .... فلم يجدها تصلح

لشى .. ولكن صاحب المبنى يبدو أنه من الطبقة البرجوازية .. فقد أصر أن ينتفع بها ... أنها ضيقة جداً ويبدو أنها مصممة لوقت الأزمات هذه ... ليست مشكلة.. المهم أننى وجدت غرفة فى الفندق المريح ... ويكفى ما يقوم به عمال النظافة من تعقيم الفندق كل يوم والاهتمام براحة النزلاء ..

بعد أن توضأت وصليت ما فاتنى من الأوقات وأنا فى السفر .. أغلقت النور وألقيت بجسدى المنهك إلقاء الزاهد المتعب ، لم أعرف كم ساعة أستغرقتها فى النوم المتقطع من شدة الألم ..

أستيقظت فى الصباح الباكر وأنهيت كل الأعمال التى أتيت للقاهرة لإنجازها..

عدت للفندق بعد آذان العصر وأجريت اتصالاً بمصطفى بك الذى سَعد بوصولى للقاهرة وطلب منى التوجه فوراً له .. و لكنى أخبرته أننى أحتاج للراحة وأننى سأكون عنده بعد صلاة المغرب ..

ما أن دخلت ديوان المركز ورأيته مثل البدر وحوله النجوم ... وجاء مهرولاً وضمنى فى أحضانه ضماً شديداً وصافحنى وصافحته بحفاوة .. فلا يعلم الحب والود ما بينى وما بينه إلا الله..

واستعجب بقية الضباط من هذا الترحيب .. و لسان حالهم يقول:من هذا الشخص الذى احتفى به جناب المأمور واصطحبه منفرداً إلى حجرته ؟قبل أن أستريح على المقعد أذّن المؤذن لصلاة العشاء .. و العادة التى تعودنا عليها سوياً هى أننا نصلى معاً فى المسجد، وذهبنا وصلينا.. و رجعنا حجرته ودخل الحارس وجاء يستمع لأوامر المأمور فى محاولة الاحتفاء بى .. فقد احترت ماذا

أشرب من كل ما وُضِعَ أمامى فى وقت واحد من مشروبات غازية مثلجة وأخرى ساخنة .. والكرم الشديد ضمن صفاته التى يتصف بها..

تجاذبنا أطراف الحديث .. وعن القضايا الغريبة التى تحدث أمامه وفى دائرته ... و آخرها هذا البلاغ من أب عن ابنته التى هربت من المنزل! ..وأن الفتاة أجرت اتصالاً هاتفياً فى الساعة السادسة صباحاً أخبرته أن والدها قام بتعذيبها؛ ولذلك هربت ... و الأب كاد يجن ويفقد عقله .. و أثناء سرد هذا القصة دخل الحارس ليخبره أن رجلاً يريد أن يدخل وابتسم المأمور قائلاً لى: إن هذا الرجل هو والد الفتاة ويبدو أن الليلة ستكون مليئة بالأحداث ..

لم يكد المأمور يقول للرجل تفضل بالجلوس حتى دخلت سيدة يبدو عليها أنها ذات شأن عظيم.. ويبدو من هندامها وسمتها أنها هانم فعلاً من مثيلات اللاتى كن فى المسلسلات .. و لكنها هذه المرة ليست مسلسلاً .. بل حقيقة .. فمن هذه الهانم ذات الشأن المهم يا ترى ؟ وماهى قصة الفتاة الهاربة ؟ وماذا سيحدث فى تلك الليلة ؟!

- ٤ -

يبدو على السيدة أنها مهمة جداً ومن علية القوم وأنها زوجة رجل مهم أيضاً ، ويبدو عليها أنها من عائلة أرستقراطية تضرب بجذورها عبر التاريخ .... معتزة جداً بنفسها .. ترتدى فستانا أسوداً به حبات تتلألأ مثل النجوم فى ليلة غاب فيها القمر ، ويخيل إليك أن هذا الثوب الفخم قد جيئ به خصيصاً من أحد بيوت الأزياء من باريس .. على الرغم أنها محجبة ومحتشمة والثوب واسع فضفاض ... وما زادنى دهشة هو العقد .. ربما يظن البعض أن العقد مصنوع من الذهب وتم شراؤه من محلات لاذوردى .. أو من حجر كريم يتناسب مع الثوب الفخم ... لكنه لا هذا ولا ذاك .. العقد عبارة عن رصاصة!.. نعم رصاصة ... ولكنها أطول قليلاً من حجمها العادى.. ويبدو أن المصانع الحربية قد قامت بصناعة هذا العقد الغريب الفريد من نوعه خصيصاً لها..ترى لماذا الرصاصة بالذات.وكيف..؟

وهذا العجب والدهشة ستزول تماماً حينما تعرف أن زوجها لواء فى الجيش المصرى وهو رجل مشهور ومهم جداً اسمه "س ص" نسبة لمدينة صدفا بأسيوط ومن إحدى العائلات العريقة هناك! أما اسمها فهو "أ" هانم و لديها ابنان والاثنان ضابطا شرطة .. أى أنها تتبع

الاثنين معاً .. ويبدو أن الجيش والشرطة اتحدا فى فيلتها الشهيرة بجوار مركز الشرطة المتواجدين فيه حالياً .

رغم هذا الثراء وهذا الأصل والحسب والنسب الرفيع إلا أن السيدة متواضعة جداً طيبة الخلق والخلقة وحريصة تماماً على أن تكون محتشمة فى هندامها وردائها وحديثها.

وعلى الرغم أنها على ما يبدو من عمر ابنيها أنها تخطت الخمسين بسنتين أو أكثر .. إلا أنها لا يبدو عليها ذلك .. فيخيل إليك أنها لم تبلغ الأربعين من عمرها .. وأعتقد أن حياتها فى القصر وهذه الرفاهية التى تربت وعاشت فيها سبباً رئيساً فى ذلك،

وهى شديدة الاعتزاز بزوجها أحد كبار الجيش ، وهى أيضاً لا تقل عنه على مايبدو شهرة ومعرفة بكبار الوزراء بل تستطيع القول أنها تستطيع أن تدخل مكتب المشير دون أن يشير إليها أحد بالممانعة أو يقف فى طريقها شئ...

و ما يبهرك أكثر .. أنها طيبة جداً ومهذبة جداً . والتواضع هو الصفة البارزة فيها .. أنها لا تشعرك أن هناك فرق أو حاجز بينك وبينها.. أنها وأنت أشخاص عاديون ولا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى..

نظر مصطفى بك إلينا فى شياكة ولباقة وسمت النبلاء .. ربما يذكرك بنبلاء ودوق انجلترا فى قصص "تشارليز ديكنز" .

وقام بتعريف كل واحد فينا على الآخر .. و أومأت أنا بالتحية وشرف المعرفة وكذلك هى ردت التحية فى أدب وتواضع واعتزاز.

ما أن سمعت حديثها عن أسيوط حتى أنتبهت .. فعشقى لمحافظة أسيوط يأتى جنباً بجنب لعشقى للقاهرة ، ففد عشت فيها ٤ سنوات فى الجامعة ، وجبت شوارعها وتعرفت على قراها ومراكزها .. وفيها أحداث كثيرة أثرت على حياتى حتى الآن..

كانت تتحدث أن ابنيها الضابطين فى أحد مراكز أسيوط .. وسألها مصطفى بك عن حياتهما وحيدين هناك، فأخبرته أنهما بجوار أخوالهم هناك ... ومعظم الصعيد عبارة عن عائلات مترامية الأطراف فى عدة مراكز ومدن وقرى صعيد مصر .. ولكنها تربطها رغم تفرقة المسافات عادات وتقاليد واحدة...

وأثناء حديثى عن أسيوط وعن العائلات هناك وبعد أن أخبرتها أن عائلتى لها امتداد فى أسيوط ... ولم أكد أن أنهى كلامى حتى بادرتنى عن اسم عائلتى ... وأصابها الذهول والدهشة حينما سمعت اسم عائلتى! نظرت فى دهشة وابتسامة إلى مصطفى بك قائلة : إن الأستاذ عبد الباسط قريب لى .!! أنها صدفة عجيبة .. وابتسمت هى وابتسمت أنا ...

وفى الواقع أننى لست خبيراً فى علم الأنساب .. وليس من هؤلاء الذين يهتمون بتبادل الزيارات بين أفراد العائلة فى المحافظات المختلفة .. ولا أرهق نفسى مثل كثيرين من أبناء العائلات والقبائل فى صعيد مصر فى البحث والتنقيب عن أقرباء وفروع وامتداد للعائلة فى شتى أنحاء الجمهورية .. وقضيت الأربع سنوات فى محافظة أسيوط لم أقم بزيارة أحد من العائلة هناك على الإطلاق! ولا يهمنى هذا بالمرة ..

على الرغم من أن معظمهم يتقلدون مناصب مهمة فى القضاء والشرطة على وجه التحديد .. وكان الطلاب يبحثون بأى وسيلة عن حمل ورقة تحمل اسم ورقم هاتف ضابط أمن دولة ليكون حصناً له وأمناً ... أما أنا فلا فقد كنت وما زلت لا أعتز إلا بنفسى رغم قلة حيلتى وبساطة عيشى .. أننى أشعر هكذا بالحرية والانطلاق ..

و أن أى نجاح أو فشل سأتحمل نتيجته وحدى دون حاجة إلى أحد..

كانت السيدة من لحظة لأخرى تنظر لى نظرة الفراسة .. والعرب مشهورون بالفراسة .. أى معرفة الشخص من ملامح وجهه..تستطيع أن تقول أن هذا ينتمى لعائلة كذا أو قبيلة فلان فى بلد كذا.

وكأنها تقول بالفعل أنه من عائلة زوجى الضابط الكبير... هل أسعدنى ذلك..أن يكون أحد أقربائى أحد الرجال المشهورين والمهمين..؟ لا على وجه الإطلاق .. أن هذا لا يعدو وأن يكون مصادفة ، وأن العلاقة والمعرفة إذا استمرت ستكون لحسن أخلاق هذه السيدة الفاضلة المحترمة .. فأنا احترمتها وقدرتها قبل معرفتى بها أو بزوجها ... و العلاقة لكى تكون مستمرة وطاهرة ونقية لابد وأن تكون فى محبة الله وحده .. فلا أنساب لها وزن عند الله ولا جاه ولا سلطان .. فكلنا عبيد لله الخالق البارئ المصور ملك الملوك..

درجة الحرارة عالية جداً.. والحارس الشخصى لجناب المأمور لا يكاد تمر عشرة دقائق إلا ويدخل ليأخذ من أمامنا زجاجات المياة الباردة ليحضر غيرها ... ثم القهوة والشاى والمياه الغازية .. و لولا أن هذا الحارس يمتلك جسداً قوياً ممشوقاً ويبدو عليه القوة ما

استطاع أن يفعل كل هذا الجهد على مدار الليلة كلها .. أو ربما كان يتعمد تكرار الدخول ليحظى بعدة دقائق فى حجرة المأمور المكيفة المتناقضة مع الجو الملتهب

فى الخارج

***

نعود لقصة الرجل وابنته، وما حدانى لروايتها أنها ليست سراً يجب إلا أفصح عنه .. ولكن تم عمل محضر بذلك وكثيراً من العامة عرفها بالتفصيل.

الرجل ضخم البنيان يبدو عليه الترف ويبدو عليه القلق والتوتر ولكن بصورة ليست هيسترية كما يجب أن تكون !! وبدأ الرجل يقص حكايته قائلاً:

تزوجت من سيدة منذ عشرين عاماً ، كانت لأب مصرى وأم سورية...وما لبثت وسافرت لدولة الكويت .. و كنت أزور القاهرة مرة كل عام لمدة شهر... أنجبت بنتاً و ابناً ... أما زوجتى فقد قامت بإنشاء شركة سياحية خاصة بها شهيرة فى القاهرة ... و مرت السنون وأنا أكدح فى الغربة و أقوم بتحويل أموالى إلى زوجتى وأبنائى ، ومنذ عدة أشهر قررت إلا أعود للكويت مرة ثانية..

منذ عامين تقريباً قامت زوجتى برفع دعوى خلع ضدى .. و هنا قاطعه مصطفى بك سائلاً:

هل حصلت على حكم قضائى بذلك ؟ أم ما زالت على ذمتك ؟

وجاوب الرجل بأنه لا يعرف... فوجهت أنا سؤالى بحكم عملى : هل تم إعلانك بحكم قضائى بقبول دعوى زوجتك بالخلع منك ؟ أجابنى أنه أيضا لا يعلم!! وبدأت نبرته الحزينة تسيطر عليه... أنه لا يعلم شيئاً على الإطلاق عما يحدث فى بيته ... والواقع لم يصبح بيته .. فقد ترك هذا البيت لزوجته وابنته وولده .. و أن قضية الخلع هذه ليست المشكلة الآن !! استطرد قائلاً : منذ عدة أشهر غابت ابنتى لمدة خمسة أيام ثم عادت .. و قالت أنها كانت فى الاسكندرية مع صديقتها ، ثم غيرت أقوالها وقالت أنها كانت فى شرم الشيخ !! وكانت تحمل عملات خليجية !! مر الموضوع ولم يحدث شيئاً .!!

لكن منذ خمسة عشر يوماً غابت وتركت هاتفها فى المترل! ولا أستطيع أن أحصى عدد المكالمات التى جائتنى على هاتفها من أصدقائها وصديقاتها...بعض الشباب فى إحدى المكالمات أخبرنى أن ابنتى تزوجت قبل ذلك!! و البعض قال لى أنها سيئة السمعة وأنها دائماً مع صديقات السوء... لم أحتمل تلك المكالمات وهذا الهراء الذى جعلنى أجن!!

رجعت إلى المترل بعد ذلك وقد قامت بطلاء شعرها باللون الأصفر حينما توقعت أننى أخبرت الشرطة وجارى البحث عنها .. وأستلمتها هنا من ديوان المركز ... لكنى عندما وصلت للمترل وهى معى ، وما أن دخلت من الباب حتى أحضرت مقص وقصصت شعرها حتى أصبحت مثل رأس الولد... و قمت بربطها بسلسلة فى قدمها وضربتها ..

و هنا قاطعه المأمور قائلاً: إن هذا الأسلوب ليس الأمثل فى التعامل مع فتاة فى سن العشرين .. كان عليك أن تحتويها وتجرب

معها طرقاً أخرى لتهذيبها ... و هنا هم الرجل أن يرد ولكنه رجع .. فقد وقفت الكلمات فى فمه وتصبب عرقاً وأمسك بسيجارة وأشعلها بيدين مرتعشتين وأخرج دخاناً كثيفاً وأطرق قليلاً ناظراً فى الأرض ..

ونظرنا نحن ثلاثتنا مصطفى بك والسيدة المبجلة وأنا إلى بعضنا البعض علنا نفهم أو نستنتج شيئاً من هذا كله .. أن الموضوع بدا وكأنه سيدخل فى إطار آخر .. قطع الرجل الصمت وأزال عنا عناء توقع ما حدث قائلاً :

ما جعلنى أقوم بضربها هو ما أخبرتنى به!! ثم وقف عن الكلام مرة أخرى ....

وكنا نحن نقدر موقفه كأب فقد السيطرة على بيته وأبنائه لسبب يرجع إليه هو فى المقام الأول .. فهو الذى تركهم دون تربية وتعهد.. وفى الواقع ليست كل أسرة بعد عنها عائلها .. قد فسد حالها.. هناك الأم التى ربت أطهر الأبناء وأعظمهم خلقاً وفى غياب الأب .. إذا ليس غياب الأب وحده هو السبب .. و لكنه غياب زوجته غير المهتمة بتربية أبنائها وانغماسها فى شركتها وأموالها ...

شعرنا أن الرجل به غصة فى حلقه ، وأن هناك حاجزاً يقف بين فكيه يمنع الكلمات من الخروج .. و لكنه بعد هنيهة قال : لقد أخبرتنى أن أخاها كان يتسلل إلى غرفتها ليلاً ويمارس معها ما حرّم الله .. و أنها لم تمانعه !!

حقيقة الخبر هبط كالصاعقة و لم نجد كلمات نرد بها عليه ... وساد الصمت حجرة المأمور مرة أخرى ... وأخرج مصطفى بك سيجارة وأشعلها .. أما السيدة الفاضلة فالتزمت الصمت قاطبة

الجبين منذ أن أقلعت عن التدخين من عدة أشهر لم أذكر أنني اشتهيتها إلا هذه اللحظة ... أردت أن أبتلع الدخان ورأسي تدور قليلاً كي تعتدل بعض الشئ .. أنها ليست في مكانها الآن...

وبما أننا قد اعتدنا على المشاكل فقد أراد ثلاثتنا أن يدلى كل واحد منا بدلوه لحل الموضوع .. خاصة وأن البنت قد هربت مرة ثالثة من يومين والأب يبحث عنها

وكان علينا أن نطمئن الأب وأن نفكر له في مخرج ... حقيقة أن هذا ليس في اختصاص أو عمل أحد فينا فجناب المأمور قد حرر محضره الرسمي وعمل ما يمليه عليه ضميره المهني ... و السيدة الفاضلة ضيف مثلي عند المأمور .. و لكن مصطفى بك تعدى مرحلة إتقان العمل إلى مرحلة التفاني فيه وأن يكون إيجاد الحل وراحة الناس عنده أولى من راحته هو وأسرته .. و السيدة الفاضلة تطوعت لحل هذه المشكلة أيضاً..

تبقى الخيط الجنائي الذي يتعين على المأمور أن يبدأ منه .. وكان هذا الخيط هو آخر مكالمة من الفتاة تلقاها على هاتفه منها .. كانت الساعة السادسة صباحاً ... و أخبرته أنها لن ترجع لمنزلها مرة أخرى وطلب هو منها أن تتوجه إلى مكتبه و تنتظره وأن من في المركز سيهتمون بها حتى يذهب هو .. ولكنها قطعت الاتصال معه..

ومنذ هذه اللحظة وهو يجرى اتصالاً بهذا الرقم ولا أحد يرد... و تطوعت السيدة الفاضلة لحل هذه المشكلة ، وطلبت رقم الهاتف وأنها ستتصل هي بنفسها وتخبرها أنها زوجة المأمور وأنها سمعت بقصتها

وستقوم برعايتها وحمايتها ... فما كان يهم الأب ويهمنا هو عودها .. ولكن الأب كان متأثراً جداً بما أخبرته به ابنته وما بينها وبين أخيها من علاقة محرمة .. و فى الواقع أخذنا ثلاثتنا يطمئن فى الرجل المسكين وقلنا له أنها قالت له ذلك غضباً منها لإهانتها وضربها وانتقاماً منه .... والحقيقة أننا لم نكن نعلم تماما عما إذا كان توقعاتنا صحيحة أم لا....؟

أجرت السيدة عدة اتصالات دون جدوى .. فلا أحد يرد ..وفجأه ردت الفتاة عليها .. و الحقيقة أن السيدة قد قامت بدورها على أكمل وجه .. و نجحت فى إقناع الفتاة أن تأتى لمكتب المأمور لمقابلتها فى الصباح هناك.. ووافقت البنت..وبدأ الأب يسترد أنفاسه ويستعيد توازنه... وخرج بعد أن أخبره المأمور أن يأتى فى الصباح ويكون على مقربة من ديوان المركز حتى إذا ما تطلب الأمر لاستدعائه .. وهنا وقف الرجل ناظراً إلينا وقائلاً فى حزم : لا بد وأن يتم توقيع الكشف الطبى على ابنتى لكى أعرف إذا كانت عذراء أم لا وفى كل الأحوال...

وقلنا له أن هذا من حقه كأب ولكن ليدع هذا الموضوع للسيدة الفاضلة..

والسيدة درست الفلسفة وعلم النفس وقامت بكتابة بحث ميدانى عن الإجهاض وأخبرتنا بعدة قصص ومغامرات فى ذلك .. أنها على قدر كبير من العلم والثقافة والتواضع أيضاً ...

ونهضت هى وقامت بمصافحتى بحرارة معبرة بسعادتها لمقابلة رجلٍ من عائلة زوجها التى تكن لها تقديراً واحتراماً واعتزازاً كبيراً، وأننى أصبحت عضواً جديداً فى عائلتها ، وما كان لى أنا الا أن أعبر عن

امتنانى العميق على هذه المصادفة السعيدة وصافحتها كما يصافح النبلاء أصحاب الذوق الرفيع إحدى دوقات إمارة "ويلز" فى بريطانيا .... وعلى الرغم أننى لست نبيلاً ولا دوقاً ولا يحزنون .. و أنى أغلب خلق الله قاطبة ، إلا انى وجدت نفسى أفعل ذلك فى هدوء وابتسام ..

وبعد أن خرجت من الحجرة .. وقفت أنا وطلبت من جناب المأمور أن يتركنى أغادر .. و لكنه طلب منى أن أكون هنا فى الصباح الباكر ..وأعتذرت .. لكنه ألح وصمم على ذلك .... و أراد أن أكون وقت وجود الفتاة فى المكتب .. و أن هذه المشكلة سنساهم فيها هو والسيدة والعبد لله ... و أن هذه حالة إنسانية خارجة عن نطاق الرسميات ... ولنفعلها لوجه الله .

وأخبرته أنى سأفعل .. ووقف وصافحنى وأخذنى فى أحضانه وربت على كتفى وخرج مودعاً لى حتى باب ديوان المركز الأمامى رغم طلبى منه التفضل والرجوع إلى حجرته .. إلا أنه رفض ... وكان باقى ضباط المركز يقفون انتباه للمأمور .. والانتباه لشأنى أنا .. علهم يعرفون من هذا الضيف الذى يحرص المأمور على أن يودعه بهذه الحفاوة!

- ٥ -

خرجت من ديوان المركز اتسكع فى شوارع القاهرة واتنسم هواء الليل العليل .. كانت الساعة شارفت الواحدة بعد منتصف الليل .. وكان الهواء نظيفاً وبدأت حرارة الجو تنخفض رويداً رويداً .. وكنت أحتاج إلى هذا .. فما جرى من أحداث وما سمعته من حياة هذا الأب البائس وابنته جعلنى أفكر كثيراً وأنا أمشى وحدى كما أحب دائماً فى ليل العاصمة ... ودارت فى رأسى أسئلة كثيرة .. هل ستأتى الفتاة فى الصباح فعلاً ؟ وهل ستوافق على كشف عذريتها

وكيف وأين سيحدث هذا ؟

حينما اقتربت من الفندق وجدت نفسى أشعر بالجوع .. و كان هناك مطعم فخم بجوار الفندق..وطالما أن الليلة كلها تبدو أرستقراطية فليكن العشاء أيضاً كذلك .. على الرغم أننى لا أهتم بهذا التميز فى الأطعمة إلا أننى قد وجدت نفسى أدلف إلى هذا المطعم الذى يقدم مأكولات الشاورما والكبدة الاسكندرانى ولكن بقطع الزبد اللذيذة التى تشعرك أن فتاة المراعى قد جهزتها خصيصاً لرواد هذا المطعم الفخم ... وكنت الزبون الوحيد فى هذه الساعة المتأخرة؛ و لذلك كان الاهتمام بمجيئ زائر ما بعد منتصف الليل أكثر اهتماماً وأوفر خدمة .. هل أردت أن أكافئ نفسى؟ أننى لم أفعل شيئاً استحق عليه المكافئة ...!! إذن ما هو سبب الراحة النفسية والسكينة التى تسللت إلى صدرى وأنفاسى ووجدانى؟ فى الحقيقة أن هذا شعور طبيعي فى هذه اللحظة بالذات .. أن هذا الشعور بالراحة النفسية

والاطمئنان دائماً وبدا يلازمنى عندما أكون مع مصطفى بك المأمور.. هذا الرجل يأخذنى إلى زمن بعيد .. يشعرنى بأنى أجلس مع أحد الصحابة ... مع أحد العظماء القليلين الذين عرفهم العالم عبر سنين طويلة وعرفتهم البشرية والإنسانية .. هذا النور الذى يخرج من وجهه و الابتسامة التى لا تفارقه .. هذا التفانى فى العمل، أن كل دقيقة تمر فى حياته تحمل جديداً و مثيراً ، وربما هذا من ضمن تمسك وتشبث الشباب والصحة به ..

حينما كان مأموراً فى ديوان مركز مدينتى فى الصعيد كنا نتقابل دائماً أبداً ... كنت أنهى عملى بالمحكمة ثم أتوجه مباشرة إليه .. أتوضأ فى استراحة مكتبه ثم نتوجه لصلاة الظهر فى المسجد ثم نعود لمكتبه مرة أخرى ونظل نتجاذب أطراف الحديث حتى آذان العصر!! وكان ذلك يحدث كثيراً ... كانت معظم أحاديثنا عن تفسير القرآن الكريم .. وعن العلاقات الإنسانية والإخلاق وإتقان العمل... و هو يحفظ القرآن كله تجويداً وترتيلاً ، وحينما تستمع إليه وهو ينطق الآيات الكريمة تشعر أنه عالم كبير فى اللغة العربية وتجويد القرآن ....

وهو يمتلك عينين حادتين متسعتين .. تشعر أنهما أقوى بكثير من عينى النسر المرسومة على البوريه الذى يضعه على رأسه ... أنه شديد الذكاء بصورة تجعله مثالاً ونموذجاً لضابط الشرطة القوى الفطن الذى لا يغلبه أمر أو موقف مهما كان ..

أخيراً رجعت إلى الفندق ودخلت غرفتى وكنت مجهداً جداً .. وشعرت بألم فى قدمى يتسلل لى مرة أخرى..

أطفأت المصباح وكعادتى لا أستطيع النوم إلا كذلك .. في الظلام .. و ألقيت بجسدى المتعب على الفراش ... ولكن وعلى الرغم من

تعبى هذا فقد هرب منى النوم .. استلقيت على ظهرى ووضعت يدى الاثنتين أسفل رأسى وأخذت فى تفكير عميق...

***

كان وقت الضحى...استيقظت وتوجهت مباشرة لأعاود المشاركة فى محاولة رجوع الفتاة لأبيها...

ما أن رأنى حارس مكتب المأمور وراح يهرول فاتحاً الباب لى .. كانت السيدة الفاضلة تجلس على أحد المقعدين على يمين مكتب المأمور ، وفى مواجهة الباب ، وكانت تجلس فى المقعد الأخر الفتاة!

توجهت وصافحت مصطفى بك الذى أخذنى فى أحضانه للمرة الثانية بحفاوة وكأنه لم يرنى منذ سنين ...!!

كانت السيدة تتحدث فى هاتفها وحينما رأتنى وقفت وصافحتنى ثم غادرت مقعدها وطلبت منى أن أجلس مكانها .. ولم تعطنى فرصة كى أطلب منها أن تجلس مكانها ... و جلست هى على أحد مقاعد الأنتريه الوثير فى مكتب المأمور حيث كانت فى مواجهتها الناحية الأخرى والدة الفتاة ...!!

نظرت إلى الفتاة التى تجلس على المقعد فى مواجهتى ... الفتاة ذات ملامح هادئة، تتحرى إلا تقع عيناها على أحد فى الحجرة...كان شعرها مصبوغاً باللون الأصفر وقصيراً جداً حتى يخيل إليك فعلاً أنها رأس ولد وليس بنتاً...

كانت نظراتها حائرة .. و يداها تعبثان مع عينيها كعبث طفلة صغيرة على وجهها ..

أما الأم فيبدو عليها بالفعل أن والدها من الشام .. فهذا الأنف الجميل الذى يعجز فى رسمه الأسبانى "بكاسو" ، وهذه الحمرة على وجهها كحمرة النبيذ المعتق منذ زمن بعيد بجنوب فرنسا ، ولكن أحداً لم يرتشفه حتى الآن !والعينان اللامعتان التى أرهقهما السهد والحرمان .. تنظران فى الأرض ولا تتحركان إلا قليلاً .. و لكن يبدو عليها أيضاً أنها قاسية قوية .. فالمكر ورباطة الجأش تبدوان علي ملامحها أيضاً ... وحجابها أعطاها جمالاً فوق جمالها حتى تستطيع أن تقول وأنت مطمئن أنها أجمل من ابنتها بكثير .. وبكثير جداً...

كان على أن أستنتج ما فاتنى من أحداث .. و كان يبدو على السيدة الفاضلة أنها نجحت حتى الآن فى خطتها إلى حد كبير .. وقطعت شوطاً بعيداً فى تحقيق الهدف من رجوع الفتاة لأبيها ..

أما مصطفى بك فكان يهمس لى من وقت لآخر عما حدث فى الدقائق قبل مجيئى .. و كأنه لاحظ أن الفتاة لن تسمع همسنا على الرغم من أن المقعدين الجالسين عليهما هى وأنا على نفس المسافة منه ولكنه لاحظ بكل تأكيد مثلى أن الفتاة تحمل نظرات تائهة طفولية ..

قبل أن تنتهى السيدة الفاضلة من حديثها الذى يبدو مهماً على هاتفها حان وقت آذان الظهر .. فنظر لى مصطفى بك وسألنى الذهاب إلى المسجد للصلاة تاركين النسوة وحدهن.

وبعد أدائنا للصلاة رجعنا فوجدنا الحجرة خاوية على عروشها ، وقبل أن نسأل بعضنا ما بال النسوة وأين ذهبن؟!! حتى لاحظ مصطفى بك أن هناك ورقة صغيرة موضوعة أمام مكتبه ، لا يلاحظها

إلا هو إذا جلس على مقعده ... و ابتسم ومسك بها وقرأها بصوتٍ عالٍ .. وكانت بطبيعة الحال من السيدة الفاضلة :

"لقد ذهبنا للمستشفى وسنعود بعد قليل" ..

إذا فقد شرعت فى تنفيذ الشق الثانى من خطتها لاستكمال حل هذه المشكلة ... أنها ذهبت لتوقيع الكشف الطبى على عذرية الفتاة من عدمه كان يعلم مصطفى بك وأنا أن هذه لحظة عصيبة على الفتاة إذا كانت بريئة وكارثة إذا ثبت خلاف ذلك..

وأشفقنا على الجميع ..البنت وأمها وعلى السيدة الفاضلة "أ" هانم التى ليس لها فى المشكلة ناقة ولا جمل ، ولكنها مروءة العرب ونجدة الملهوف .. فالأب الذى يقبع فى مقربة من ديوان المركز ينتظر نتيجة الأحداث ..

أخيراً وبعد أن تناولنا المشروبات المثلجة والدافئة عدة مرات .. دخلت السيدة الفاضلة وحدها ... أعطيناها دقيقة كى تستريح .. يبدو عليها الإرهاق الذهنى والعصبى كنا ننظر إليها بشغف منتظرين أن نعرف ماذا حدث فى المشفى ؟

نظر إليها مصطفى بك سائلاً: ماذا حدث ؟

أجابت السيدة الفاضلة:

لقد توجهنا للمستشفى.. والمستشفى حكومية مشهورة فى القاهرة.. ومدير المستشفى على معرفة بى تماماً وصديقة لزوجته التى وجدتها أيضاً هناك ...ثم تحدثت مع الطبيب وأخبرته فى عجالة عن القصة .. وقد أبدى الطبيب عجبه من المجهود الذى تبذله مع هذه

الحالة، وكيف خرجت من فيلتها الفخمة خصيصاً لحل هذه المشكلة...؟

ثم أخذت تكمل الحديث :

إن الوقت الذى دخلت الفتاة مع والدها حجرة الطبيب كان عصيباً.. وحاولت الأم وابنتها العدول عن هذه الفكرة لولا أننى صممت على ذلك.. و أخيراً خرج الطبيب وقال لى أن البنت عذراء.. ولكن يبدو على جسدها علامات الرزيلة!! وبادر جناب المأمور سائلاً : ماذا يعنى هذا...؟

و أردت أنا أتولى الإجابة بدلاً منها كى أمنع إحراجها ... ووصفت لمصطفى بك أن هذا الكلام يعنى أن الفتاة كانت تربطها علاقات آثمة فعلاً مع شباب ومارست كل شيئ .. وكادت أن تفقد عذريتها الأمر ازداد تعقيد ... ماذا نقول للأب بعد قدومه بعد قليل؟ هل نقص عليه الحقيقة كاملة وبالتفصيل أم أننا نتحرى إلا نقول له كلاماً يزيد من حيرته و ألمه وشكه فى ابنته ؟

دخل والد الفتاة .. يبدو عليه القلق والتلهف لمعرفة الحقيقة..

لم تجعله السيدة ينتظر كثيراً.. و عالجته بقولها : إن ابنتك سليمة تماماً ورد عليها سائلاً: كيف؟

وكررت هى إجابتها فى نبرة تأكيد واستغراب من عدم فهمه المباشر لكلامها الواضح .. ولكن الأب لم يصدق السيدة الفاضلة "أ" هانم ، وقال أنه لابد من أن يوقع عليها الكشف الطبى لدى الطب الشرعى ..

وأخبرناه أن هذا من حقه طبعاً ... و لكن فعل مثل هذا مع ابنته التى ثبت للطبيب أنها عذراء ربما يتسبب لها فى نكسة صحية وعصبية .. و عليه أن يحاول أن يحتوى ابنته وينقذ ما يمكن إنقاذه من بيته المتهدم .. و رحت أنا أتحدث إليه بنبرة يملؤها النصح والإرشاد وأن عليه أن يصدق السيدة الفاضلة التى لا يمكن أن تكذب وليس لها مصلحة فى ذلك ، وما زاد اطمئنان الرجل أن السيدة أخبرته أن ما قالته الفتاة عن العلاقة المحرمة بينها وبين أخيها ليست صحيحة وأنها قالت له ذلك انتقاما منها مما حدث منه من ضرب وإهانة تماماً مثلما قلت له أنا..

لكن السيدة الفاضلة كانت قلقة من هذه النقطة؛ لأن نظرات الأم أثناء حديث البنت بذلك كانت يبدو عليها تكذيب ابنتها وأن هناك أشياء كثيرة حدثت ..

وبعد أن قام كل واحد فينا بنصحه بأن يهتم بأسرته أكثر من ذلك وأخبرته السيدة أن زوجته لا تمانع من رجوعها له .. إلا أنه رفض ذلك وبشكل قاطع ولسبب لم نعرفه بالتحديد !

خرج الرجل.. وأخذنا ثلاثتنا نتحدث فى هذه القصة العجيبة ... كانت السيدة الفاضلة وهى تجلس فى ثقة وتواضع العظماء وهى تتحدث تذكرنى بالفيلسوفة الفرنسية "سيمون دى بوفوار". **Simone de Beauvoir**. نفس العينين الباسمتين .. والحاجبين المرفوعين فى شموخ وعظمة الأميرات ، وكل من حولها يحترمها ويجلها إجلالاً كبيراً كحب وإجلال الشعب السويدى، بملكتهم العظيمة "ديزيريه" .. و حياتها المليئة بالعطاء والبذل والكرم ...

ثم وقفت سائلة الرحيل ... وقامت بمصافحة كل منا ، و تقدم المأمور لشكرها على هذا التكرم بالمجهود والدور الذى لعبته فى رجوع البنت إلى منزلها ... و صافحتها وودعتها بحفاوة ..وكأننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن بعيد.

أما أنا فقد أصر مصطفى بك أن أكمل اليوم معه .. وأعطى أوامره للحرس بأن يأتوا بأطيب الطعام.. وجلسنا وأكلنا وشربنا وتحدثنا ... و قضيت يوماً رائعاً مع رجلٍ من أنبل الرجال.

عدت للفندق فى المساء كى أجهز حقيبتى للعودة للجنوب مرة أخرى .. فقد أتممت عملى والمهمة التى جئت من أجلها... و قضيت يوم وليلة مع مصطفى بك .. مع الرجل الذى أحبه كثيراً .. وأحترمه وأجله أكثر ... و سأظل أتردد عليه أيّنما انتقل أو ذهب إلى أى مكان ... فمعه أقضى أجمل الأوقات ...

وأغرب الرحلات

الفهـــــرس

إهداء	٥
مقـــــدمة	٧
أسيوط ...البلد العتيق	٩
يوسف.... أيّها الصديق.	١٩
ناصـــــــر ٩٧	٢٥
مدد يا دكتور	٣١
مدد يا عم الشيخ صالح أبو خليل !!!	٤١
الجامعة	٥٥
مع المخابرات.. كانت لنا مغامرات.	٦١
صديقي عمر بن الخطاب !	٨١
فى انتظار الملائكة	٨٩
القطار	١٢٥